

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١ - سُورَةُ هُودٍ

أضيفت إليه لتضمنها نبأه مع قومه ، وتميزاً لها ، وإن تضمنت أنباء غيره من الأنبياء عليهم السلام .

وقال المهايمي : سميت به لقوله ^(١) : (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ، إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) الدال على توحيد الأفعال ، مع استقامته بإعطاء كل مستعد ما يستعد له ، المقتضية للأحكام والجزاء ، وهي من أعظم المقاصد . اهـ .
وهي مكية . واستثنى منها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة فألحقت بها : (فَلَمَّا تَرَأَتْهُ (٢)
(أَفْمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ) (٣) ، (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ) (٤) .
وآياتها مائة وثلاث وعشرون .

روى الحاكم عن أبي بكر رضى الله عنه قال : يا رسول الله ! قد شئت أن قال : قد شيتنى (هود) و (الواقعة) و (المرسلات) و (عمّ يتساءلون) و (إذا الشمس كورت) .
ورواه هو والترمذى عن ابن عباس .

وروى أيضاً عن أنس وسهل وعمران . وفي رواية : شيتنى هود وأخواتها ذكر يوم القيامة وقصص الأمم . وفي رواية : شيتنى هود وأخواتها . وما فعل بالأمم .

(١) [١١ / هود / ٥٦] . (٢) [١١ / هود / ١٢] .

(٣) [١١ / هود / ١٧] . (٤) [١١ / هود / ١١٤] .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول في تأويل قوله تعالى :

[١] (الر ، كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)

« الر » تقدم الكلام على مثلها في أول سورة البقرة فليتذكر .

« كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ » أى نظمت نظاماً رصيناً محكماً معجزاً ، وأثبتت دأمة على حالها لا تبدل ولا تغير ولا تفسد ، محفوظة عن كل نقص وآفة « ثُمَّ فُصِّلَتْ » أى لأنواع من دلائل التوحيد والأحكام والمواعظ والقصص ، كما تفصل القلائد بالفرائد . أو جعلت فصولاً سورة سورة ، وآية آية ، أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد ، أى : بين ولخص . قيل : (ثم) هنا للتراخي في الحكم ، أى الرتبة أو التراخي بين الإخبارين ، لا للتراخي في الوقت ، لأن التفصيل والإحكام صفتان لشيء واحد ، لا تفكك إحداها عن الأخرى ، فليس بينهما ترتب وتراخ . وهذا التكلف ، على أن (ثم) تقتضى الترتيب ، وقد خالف قوم في اقتضاؤها إياه ، كما حكاها في (المعنى) .

« مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » أى إحكامها وتفصيلها من لدن حكيم بناها على علم وحكمة ، لا يمكن أحسن منها ، وأشد إكاماً . وخبير بتفاصيلها على ما ينبغى في النظام الحكيم في تقديرها وتوقيتها وترتيبها - قاله القاشاني - .

قال الزمخشري : وفيه طباق حسن ، لأن المعنى أحكمها حكيم وفصلها ، أى بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢] (أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

« أَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » قال القاشاني : أى تنطق عليكم بلسان الحال والدلالة ، ألا

تشركوا بالله فى عبادته ، وخصوصه بالعبادة .

وقال الزمخشري : « أَلَا » مفعول له ، أى لثلا . أو (أن) مفسرة ، لأن فى تفصيل

الآيات معنى القول ، كأنه قيل : قال لا تعبدوا إلا الله ، أو أمركم ألا تعبدوا إلا الله .

وقوله تعالى : « إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ » كلام على لسان الرسول ، أى إنى

أُنذركم ، من الحكيم الخبير ، عقاب الشرك وتبعته ، وأبشركم منه بثواب التوحيد وفائدته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى

وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ)

« وَأَنْ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من الشرك « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى بالطاعة . أو

المعنى : ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها ، كقوله ^(١) : (ثُمَّ اسْتَقَامُوا) .

« يُغْفِرْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى » أى يطول نفعكم فى الدنيا بمنافع حسنة

مرضية ، من عيشة واسعة ، ونعم متتابعة ، إلى وقت وفاتكم ، كقوله ^(٢) (مَنْ عَمِلَ

صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً) .

« وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ » أى ويمط كل ذى فضل فى العمل الصالح فى الدنيا

أجره ، وثواب فضله فى الآخرة .

« وَإِنْ تَوَلَّوْا » أى تتولوا عن التوحيد والتوبة إليه « فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ

يَوْمٍ كَبِيرٍ » وهو يوم القيامة .

(١) [٤١ / فصلت / ٣٠] و [٤٦ / الأحقاف / ١٣] . (٢) [١٦ / النحل / ٩٧] .

قال القاشاني : (كبير) أى شاق عليكم ، وهو يوم الرجوع إلى الله ، القادر على كل شيء ، أى يوم ظهور عجزكم ، وعجز ما تعبدون ، بظهوره تعالى في صفة قادرته ، فيعجزكم بالعذاب ، ولذا قال تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤] (إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[٥] (أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ

يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

« إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

ثم بين تعالى إعراضهم بجسمهم أيضاً، إثر الإشارة إلى توليهم بقلوبهم ، بقوله : « أَلَا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ » أى يزورون عن الحق واستماعه بصدورهم « لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ » أى في قلوبهم « وَمَا يُعْلِنُونَ » أى يجهرون بأفواههم « إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » أى بما في ضمائر القلوب . ونظير ما حكى هنا عن مشركي مكة من كراحتهم لاستماع كلامه تعالى ، ما قاله تعالى عن قوم نوح ^(١) (وَإِنِّي كَلِمًا دَعَوْتُهُمْ لَتَعْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) . وما ذكرناه هو أظهر ما تحمل عليه الآية - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ،

كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » أى ماتعيش به . وإنما جىء (على)

(١) [٧١ / نوح / ٧] .

اعتباراً لسبق الوعد به ، وتحقيقاً لوصوله إليها البتة ، بطريق التكفل الشبيه بالإيجاب « وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا » أى مسكنها فى الدنيا ، أو فى الصلْب « وَمُسْتَوْدَعَهَا » أى بمدالموت ، أو فى الرحم « كُلُّ » أى من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها « فى كِتَابٍ مُّبِينٍ » أى مسطور فى كتاب عنده تعالى ، مبين عن جميع ذلك .
ثم بين تعالى عظيم قدرته فى تكوينه وإبداعه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧] (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ)

« وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ » من الأحد إلى الجمعة « وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ » أى ما كان تحتها قبل خلق السموات والأرض ، وارتفاعه فوقها ، إلا الماء . وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض - كذا فى الكشاف - .

وقال القاضى : أى لم يكن بينهما حائل ، لا أنه كان موضوعاً على متن الماء .

قال قتادة : ينبئنا تعالى فى هذه الآية كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السموات

والأرض .

روى الإمام أحمد^(١) عن أبى رزىن - واسمه لقيط بن عامر المقبلى - قال : قلت يارسول الله!

أين كان ربنا قبل أن يخلق خلقه ؟ قال : كان فى عماء ، ما تحتها هواء ، وما فوقه هواء ،

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ١١ من الجزء الرابع (طبعة الحلبي) .

ثم خلق العرش بعد ذلك . ورواه الترمذى ^(١) وحسنه وقال : قال أحمد : يريد بالعماء أنه ليس معه شيء .

وقال البيهقي في كتاب (الأسماء والصفات) : (العماء) ممدود كما رأيت مقيدا كذلك ، ومعناه السحاب الرقيق ، أى فوق سحاب ، مدبراً له ، وعالياً عليه . كما قال تعالى ^(٢) : (ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) . يعنى مَنْ فوق السماء . وقوله . (ما فوقه هواء) أى ما فوق السحاب هواء . وكذلك قوله (وما تحته هواء) أى ما تحته السحاب هواء .

وقد قيل : إن ذلك (العمى) مقصور ، بمعنى لا شيء ثابت ، لأنه مما عمى عن الخلق ، فكأنه قال فى جوابه : كان قبل أن يخلق الخلق ، ولم يكن شيء غيره . و (ما) فيها نافية . أى : ليس فوق العمى ، الذى هو لا شيء موجود ، هواء . ولا تحته هواء . لأنه إذا كان غير موجود ، فلا يثبت له هواء بوجه . انتهى ملخصاً .

وقال ابن الأثير : الماء فى اللغّة : السحاب الرقيق ، وقيل الكثيف ، وقيل هو الضباب . وفى الحديث حذف ، أى أين كان عرش ربنا ؟ دل عليه قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) .

وحكى بعضهم أنه العمى المقصور . قال : وهو كل أمر لا يدركه الفطن . وقال أبو عبيد : إنما تأولنا هذا الحديث على كلام العرب المعقول عنهم ، وإلا فلا ندرى كيف كان ذلك العماء ! .

قال الأزهرى : فنحن نؤمن به ولا نكفّف صفته . وقوله تعالى : « لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا » أى أخلصه ، متعلق بـ (خلق) أى : خلقهن لحكمة بالغة ، وهى أن يجعلهن مساكين لعباده ، وينعم عليهم بفنون النعم ،

(١) أخرجه الترمذى فى : ٤٤ - كتاب التفسير ، ١١ سورة هود ، ١ - حدثنا أحمد

ابن منيع . (٢) [٦٧ / الملك / ١٦] .

فيعبده وحده ، ويتسابقوا في العمل الذي يرضيه . ولما كان الابتلاء والاختبار لمن تخفى عليه عاقبة الأمور ، قيل : إنه هنا تمثيل واستعارة ، فشبّه معاملته تعالى عباده في خلق المنافع لهم ، وتكليفهم شكره ، وإثابتهم إن شكروا ، وعقوبتهم إن كفروا - بمعاملة المختبر مع المختبر ، ليعلم حاله ويجازيه ، فاستعير له الابتلاء على سبيل التمثيل ، (ليعلمكم) موضع (ليعلمكم) . ويصح أن يكون مجازاً مرسلًا ، لتلازم العلم والاختبار . أى : خلق ذلك ليعلم ، أى . ليظهر تعلق علمه الأزلى بذلك .

قال القاشاني : جعل غاية خلق الأشياء ظهور أعمال الناس . أى : خلقناهم لنعلم العلم التفصيلي التابع للوجود الذي يترتب عليه الجزاء ، أيكم أحسن عملا ، فإن علم الله قسمان : قسم يتقدم وجود الشيء في اللوح ، وقسم يتأخر وجوده في مظاهر الخلق . والبلاء الذي هو الاختبار هو هذا القسم - انتهى - .

ونحو هذه الآية قوله تعالى^(١) : (وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا) . وقوله^(٢) : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَمَّالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ) . وقوله سبحانه^(٣) : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) .

وقوله تعالى « وَالَّذِينَ قُلْتَ » أى لأهل مكة « إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ » أى مَحْيُونَ « مِنْ بَمَدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا » أى القول بالبعث ، أو القرآن المتضمن لذلك « إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » أى مثله في الخديعة والبطلان .

(١) [٣٨ / ص / ٢٧] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ١١٥ و ١١٦] .

(٣) [٥١ / الذاريات / ٥٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَلَيْنَ آخِرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ، أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)
 « وَلَيْنَ آخِرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ » أى جماعة من الأوقات محصورة .

والعذاب هو عقاب الآخرة ، أو عذاب الدنيا بيدر ، أو هلاك المستهزين الذين ماتوا قبل بدر « لَيَقُولُنَّ » أى استهزاء « مَا يَحْبِسُهُ » أى عنا . « أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ » أى دار ونزل بهم « مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » أى العذاب الذى كانوا به يستعجلون .

الطيفة :

(الأمة) تستعمل في الكتاب والسنة في معان متعددة . فيراد بها الأمد ، كما هنا وقوله في يوسف ^(١) : (وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ) . والإمام المقصدى به ، كقوله ^(٢) : (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً فَاِنْتَابَ لِلَّهِ) . والملة والدين كآية ^(٣) : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ) . والجماعة كآية ^(٤) : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجِدَّ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْتُقُونَ) . وقوله تعالى ^(٥) : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) - أفاده ابن كثير - .

ثم أخبر سبحانه عن الإنسان ، وما فيه من الصفات الذميمة ، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين ، بقوله تعالى :

(١) [١٢ / يوسف / ٤٥] . (٢) [١٦ / النحل / ١٢٠] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٢٢ و٢٣] . (٤) [٢٨ / القصص / ٢٣] .

(٥) [١٦ / النحل / ٣٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَلَيْنِ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَوُّوسٌ كَفُورٌ) « وَلَيْنِ أَدَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً » أى نعمة « ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَوُّوسٌ » أى قنوط عن عودها، قطوع رجاءه من فضله تعالى، من غير صبر ولا تسليم لقضائه، « كَفُورٌ » عظيم الكفران لما سلف له من التقلب في نعمة الله، كأنه لم ير خيراً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَيْنِ أَدَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ، إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ)

« وَلَيْنِ أَدَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي » أى المصائب التى ساءتني « إِنَّهُ لَفَرِحٌ » أى أشر بطر « فَخُورٌ » أى على الناس بما أذافه الله من نعمائه، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١] (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ) « إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا » أى على الضراء، إيماناً بالله، واستسلاماً لقضائه « وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » أى فى الرخاء والشدة، شكراً لآلائه، سابقها ولاحقها « أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ » أى لذنوبهم بقلك الشدة « وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » أى على الصبر والأعمال الصالحة .

تنبيهه :

قال القاشانى قدس سره : ينبغى للإنسان أن يكون فى الفقر والغنى، والشدة والرخاء، والمرض والصحة، واثقاً بالله، متوكلاً عليه، لا يحتجب عنه بوجود نعمة، ولا بسميه

وتصرفه في الكسب ، ولا بقوته وقدرته في الطلب ولا بسائر الأسباب والوسائط ، لئلا يحصل اليأس عند فقدان تلك الأسباب ، والكفران والبطر والأثر عند وجودها ، فيبعد بها عن الله تعالى ، وينسأ فينساء الله بل يرى الإعطاء والمنع منه دون غيره فإن أناة رحمة من صحة أو نعمة ، شكره أو لآ برؤية ذلك منه . ونهمود المنعم في صورة النعمة ، وذلك بالقلب ، ثم بالجوارح باستعمالها في مرضيه وطاعته ، والقيام بحقوقه تعالى فيها ، ثم باللسان بالحمد والثناء متيقناً بأنه القادر على سلبها ، محافظاً عليها بشكرها ، مستريداً إياها ، اعتماداً على قوله تعالى^(١) : (أَلَيْسَ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

قال أمير المؤمنين عليه السلام : إذا وصلت إليكم أطراف النعم ، فلا تنفروا أقصاها بقلة الشكر ثم إن نزعها منه ، فليصبر ولا يتأسف عليها ، عالماً بأنه هو الذي نزع دون غيره ، لمصلحة تعود إليه ، فإن الرب تعالى كالوالد الشفيق في تربيته إياه ، بل أرف وأرحم ، فإن الوالد محجوب عما يملكه تعالى ، إذ لا يرى إلا عاجل مصالحه وظاهرها ، وهو العالم بالغيب والشهادة ، فيعلم ما فيه صلاحه عاجلاً وآجلاً ، راضياً بفعله ، راجياً إعادة أحسن ما نزع منها إليه ، إذ الفائط من رحمته بعيد منه ، لا يستوسع رحمته لضيق وعائه ، محجوب عن ربوبيته ، لا يرى عموم فيض رحمته ودوامه . ثم إذا أعادها لم يفرح بوجودها ، كما لم يحزن بفقدانها ، ولا يفخر بها على الناس ، فإن ذلك من الجهل ، وظهور النفس . وإلا لعلم أن ذلك ليس منه وله ، وبأى سبب يسوغ له نخر بما ليس له ومنه ؟ بل لله ، ومن الله .

وقوله تعالى : (إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا) استثناء من (الإنسان) أى هذا النوع يؤوس كفور ، فرح نخور ، في الحالين ، إلا الذين صبروا مع الله واقفين معه ، في حالة الضراء والنما . والشدة والرخاء ، كما قال عمر رضى الله عنه : الفقر والغنى مطيقتان ، لا أبالي أيهما امتطى . انتهى .

(١) [١٤ / إبراهيم / ٧] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٢] (فَلَمَلَكْ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

« فَلَمَلَكْ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ » أى بتلاوته عليهم ، وتبليغه إليهم ، « أَنْ يَقُولُوا » أى مخافة أن يقولوا ، تماماً عن تلك البراهين التي لا تنكاد تخفى صحتها على أحد من له أدنى بصيرة ، وتعادياً في العناد على وجه الافتراح « لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ » أى هلاً أنزل عليه ما اقترحنا من الكنز والملائكة ، زعماً أن الرسول متبوع ، لا بد له من الإنفاق على أتباعه ، ولا يتأنى مع عدم سلطنته إلا بإبقاء الكنز عليه ، أو مجيء ملك معه يصدق برسالته ، فقال تعالى : « إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ » أى ليس عليك إلا الإنذار بما أوحى إليك ، غير مبال بما صدر منهم من الافتراح « وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » أى فيحفظ ما يقولون ويجازيهم عليه ، فكُلْ أَمْرٌ إِلَيْهِ ، وبلغ وحيه بقلب منشرح ، غير مبال بهم .

اطائف :

الأولى - قال القاشانى : لما لم يقبلوا كلامه ﷺ بالإرادة ، وأنكروا قوله بالاقتراحات الفاسدة ، وقابلوه بالعماد والاستهزاء ، ضاق صدورهم ، ولم ينسط للكلام ، إذ الإرادة تجذب الكلام ، وقبول المستمع يزيد نشاط المتكلم ، ويوجب بسطه فيه ، وإذا لم يجد المتكلم محلاً قابلاً لم يتسهل له ، وبقى كروباً عنده ، فشجعه الله تعالى بذلك ، وهيج قوته ونشاطه بقوله : (إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ) ، فلا يخلو إنذارك من إحدى الفائدتين : إما رفع الحجاب بأن ينجع فيمن وفقه الله تعالى لذلك ، وإما إلزام الحجة لمن لم يوفق لذلك ، ثم كل الهداية إليهم .

الثانية - لا يخفى أن (لعل) للترجى ، وهو ، وإن اقتضى التوقع ، إلا أنه لا يلزم من توقع الشيء وقوعه ، ولا ترجح وقوعه ، لوجود ما يمنع منه . وتوقع ما لا يقع منه ، المقصود تحريضه على تركه ، وتهيبج داعيته .

وقيل : (لعل) هنا للتبعيد لا للترجى ، فإنها تستعمل كذلك ، كما تقول العرب : لعلك تفعل كذا ، لمن لا يقدر عليه . فالعنى : لا أتترك .

وقيل : إنها للاستفهام الإنكارى كما فى الحديث ^(١) : لعلنا أمجلمانك .

وقيل : هى لتوقع الكفار . فكما تكون لتوقع المتكلم ، وهو الأصل ، لأن معانى الإنشآت قائمة به - تكون لتوقع المخاطب أو غيره ، ممن له ملابسة بمعناه كما هنا . فالعنى : إنك بلغت الجهد فى تبليغهم أنهم يتوقعون منك ترك التبليغ لبعضه - كذا فى العناية - .

الثالثة - إنما عدل عن (ضيق) الصفة المشبهة إلى (ضائق) اسم الفاعل ، ليدل على أنه ضيق عارض ، غير ثابت ، لأن رسول الله ﷺ كان أفسح الناس صدرأ . وكذا كل صفة مشبهة إذا قصد بها الحدوث تحول إلى فاعل ، فيقولون فى سيد سائد وفى جواد جائد ، وفى سمين سامن . قال :

بمنزلة أمما اللثيمُ فسامينُ بها ، وكرامُ الناس بادٍ شحوبها

وظاهر كلام أبى حيان أنه مقيس . وقيل إنه لمشابهة (تارك) . ومنه يعلم أن المشاكلة قد تكون حقيقة - كذا فى العناية - .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه البخارى فى : ٤ - كتاب الوضوء ، ٣٤ - باب من لم ير الوضوء إلا من

المخرجين ، حديث ١٤٤ - عن أبى سعيد الخدرى .

القول في تأويل قوله تعالى:

[١٣] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ فَأْتُوا بِمِثْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)

« أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ » أى ما يوحى إليك . وفى (أم) وجهان منقطعة مقدرة بـ (بل) والهمزة الإنكارية (أى : بل يقولون . ومتصلة والتقدير : أيكلفون بما أوحينا إليك ، وهو ما فى الإعجاز ، أم يقولون ليس من عند الله .

« قُلْ فَأْتُوا بِمِثْرِ سُورٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا » أى للاستماعة « مَنْ اسْتَطَعْتُمْ » أى من الإنس والجن . وقوله : « مِنْ دُونِ اللَّهِ » متعلق بـ (ادعوا) ، أى متجاوزين الله تعالى « إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » أى فى أنى افتريته ، فأنتم عرب فصحاء مثلى ، لا سيما وقد زاولتم أساليب النظم والنثر والخطب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

« فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ » أى بما لا يعلمه غيره من نظم معجز للخلق ، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليها « وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » أى واعلموا عند ذلك أن لا إله إلا الله ، وأن توحيدَه واجب ، والإشراك به ظلم عظيم ، « فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » أى مبايعون بالإسلام ، منقادون لتوحيد الله ، وتصديق رسوله ، بعد هذه الحججة القاطعة ؟

لطائف :

الأولى - قيل : تُحَدِّثُوا أَوْلَا بِمَشْرِ سَوْرٍ ، فَلَمَّا عَجَزُوا تُحَدِّثُوا بِسُورَةٍ ، وَذَهَبَ الْمَبْرَدُ إِلَى أَنْ الْأَمْرَ بِالْمَعْكَسِ ، وَوَجْهَهُ أَنَّ مَا وَقَعَ أَوْلَا هُوَ التَّحْدِي بِسُورَةٍ مِثْلَهُ فِي الْبَلَاغَةِ وَالِاشْتِمَالِ عَلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمَغِيَّبَاتِ وَالْأَحْكَامِ وَأَخْوَاتِهَا ، وَهِيَ الْأَنْوَاعُ التَّسْمَعَةُ الْمَنْظُومَةُ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ :

أَلَا إِنَّمَا الْقُرْآنُ تَسْمَعَةٌ أَحْرَفٍ سَأَنْبِيكِيهَا فِي بَيْتِ شَمْرِ بِلَا مَلَلٍ
حَلَالٌ ، حَرَامٌ ، مُحْكَمٌ مُتَشَابِهٌ بِشِيرٍ نَذِيرٌ ، قِصَّةٌ ، عِظَةٌ ، مَثَلٌ

فَلَمَّا عَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ ، أَمَرَهُمُ بِالِإِتْيَانِ بِمَشْرِ سَوْرٍ مِثْلِهِ فِي النِّظْمِ ، وَإِنْ لَمْ تَشْتَمَلْ عَلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ ، وَيَشْهَدُ لَهُ تَوْصِيفُهَا بِـ (مَفْتَرِيَاتٍ) .

وقيل : إن التحدى بسورة وقع بعد إقامة البرهان على التوحيد ، وإبطال الشرك ، فتمين أن يكون لإثبات النبوة بإظهار معجزة ، وهي السورة الفذة . والتحدى بعشر وقع بعد نعمتهم واستهزائهم ، واقتراحهم آيات غير القرآن ، لزعيمهم أنه مفترى . فقامه يناسبه التكثير ، لأنه أمر مفترى عندهم ، فلا يمسر الإتيان بكثير مثله - كذا في العناية - .

الثانية : ضمير (لكم) للنبي ﷺ ، وجمع للتعظيم ، كما في قول من قال :

* وَإِنْ شَدَّتْ حَرَمَتِ النِّسَاءِ سِوَاكُمْ *

أَوْلَاهُ وَالْمُؤْمِنِينَ ، لِأَنَّهُمْ أَتْبَاعُهُ فِي الْأَمْرِ بِالتَّحْدِي ، وَفِيهِ تَنْبِيهُ لَطِيفٌ عَلَى أَنْ حَقَّهُمْ أَلَا يَنْفَكُوا عَنْهُ ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَيُنَاصِبُوا مَعَهُ لِمُعَارَضَةِ الْمَعَارِضِينَ ، كَمَا كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي الْجِهَادِ . وَإِرْشَادٌ إِلَى أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَفِيدُ الرِّسْوَخَ فِي الْإِيمَانِ ، وَالطَّمَأْنِينَةَ فِي الْإِيقَانِ ، وَلِذَلِكَ رَتَبَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ عِزَّ وَجَلَّ : (فَاعْمَلُوا . . .) الخ . وَجُوزَ أَنْ يَكُونَ الْخَطَابُ فِي الْكُلِّ لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ جِهَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، دَاخِلًا تَحْتَ الْأَمْرِ بِالتَّحْدِي ، وَالضَّمِيرُ فِي (لَمْ يَسْتَجِيبُوا) (مَنْ اسْتَطَعْتُمْ) أَي : فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبْ لَكُمْ سَائِرُ مَنْ تَجَارُونَ إِلَيْهِمْ فِي مَهْمَاتِكُمْ إِلَى

وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا . وقوله تعالى (١) : (مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ) .
لطيفة :

في إعراب « باطل » وجهان :

الأول - كونه خبراً مقدماً ، و (ما كانوا) مبتدأ مؤخرأ : و (ما) مصدرية أو موصولة ،
 والكلام من عطف الجمل .

والثاني - كونه عطفاً على الأخبار قبله أي : أولئك باطل ما كانوا يعملون . و (ما كانوا يَعْمَلُونَ) فاعل بـ (باطل) ورجح هذا بقراءة زيد بن علي رضي الله عنهما : (وَبَطَلَ)
 ماضياً معطوفاً على (حَبِطَ) .

ثم أشار تعالى إلى صفة المؤمنين ، في مقابلة أولئك ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٧] (أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابٌ
 مُّوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ، أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ
 فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ، فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِن
 أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ)

« أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ » أي برهان نير ، عظيم الشأن ، يدل على حقيقة ما ثبت عليه من الإسلام ، وهو القرآن « وَيَتْلُوهُ » أي يتبعه « شَاهِدٌ مِّنْهُ » أي من القرآن نفسه ، يشهد له بكونه من عند الله تعالى ، وهو إعجازه . وفسرت (البينة) أيضاً بالإسلام ، سماه بينة لغاية ظهوره ، إذ هو دين الفطرة ، قبل تدنيسها برجس الوثنية و (الشاهد) بالقرآن ،

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٠] .

فالضمير للرب تعالى . « وَمِنْ قَبْلِهِ » أى القرآن « كِتَابُ مُوسَى » وهو التوراة . أى :
 وبتلو تلك البينة من قبله كتاب موسى ، مقررًا لذلك أيضاً . وقوله تعالى : « إِمَامًا » أى
 مقتدى به فى الدين ، « وَرَحْمَةً » أى نعمة عظيمة على المنزل إليهم ، تهديهم وتعلمهم
 الشرائع . « أُولَئِكَ » أى من كان على بينة « يُؤْمِنُونَ بِهِ » أى بالقرآن ، فلهم الجنة ،
 « وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ » يعنى أهل مكة ، ومن ضامهم من المتحزبين على رسول
 الله صلوات الله عليه ؛ « فَالْتَأَرُّ مَوْعِدُهُ فَلَاتَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ » أى شك من القرآن أو من
 الموعد « إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » .
 أى به . إما لقصور أنظارهم واختلال أفكارهم ، وإما لعنادهم واستكبارهم .

لطائف :

الأولى : (مَنْ) فى قوله تعالى : (أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ) مبتدأ حذف خبره ،
 لإغناء الحال عن ذكره . وهذا سر حذف معادل الهمزة كثيراً . وتقديره : أمَّنْ كان على
 بينة من ربه كأولئك الذين ذكرت أعمالهم ، وبين مصيرهم ومآلهم - كذا قال أبو السعود .
 وفى (شرح الكشاف) أن التقدير : أمَّنْ كان يريد الحياة الدنيا ، على أنها موصولة ،
 فن كان على بينة من ربه ، والخبر محذوف ، لدلالة الفاء . أى : يعقبونهم أو يقربونهم .
 والاستفهام للإنكار فيفيد أنه لا تقارب بينهم ، فضلاً عن التماثل ، فلذلك صار أبلغ من
 نحو قوله تعالى (١) : (أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ، لَا يَسْتَوُونَ) .

الثانية : فرى (كتاب موسى) بالنصب عطفاً على الضمير فى (يتلوه) أى يتلو القرآن
 شاهد ممن كان على بينة من ربه . يعنى من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ،
 وشهادتهم على أنه حق لا مفترى ، لما يجدونه مكتوباً عندهم ، و(يتلو) من التلاوة ، فتكون
 الآية كقوله تعالى (٢) . (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ) - والله أعلم - .

(١) [٣٢ / السجدة / ١٨] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١٠] .

الثالثة - (الأحزاب) جمع حزب . والحزب جماعة الناس . ويطلق (الأحزاب) على من تألبوا على حرب رسول الله ﷺ ، وكذا كل نبي قبله . وهو إطلاق شرعي . وعليه حمل الأكثر الآية ، لتكون السورة مكية . إلا أن اللفظ يتناوله ، وكل من شاكلهم من سائر الطوائف .

وفي صحيح مسلم^(١) عن سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ؛ أن رسول الله ﷺ قال : والذي نفسى بيده ! لا يسمع بي أحد من هذه الأمة ، يهودى أو نصرانى ، ثم لا يؤمن بي ، إلا دخل النار . قال سعيد : كنت لا أسمع بحديث من النبي ﷺ على وجهه ، إلا وجدت مصداقه في القرآن ، فبلغنى هذا الحديث ، فجملت أقول : أين مصداقه في كتاب الله ؟ حتى وجدت هذه الآية (وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ) قال : اللل كلها .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٨] (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا » كقوله للملائكة (بَنَاتُ اللَّهِ) ، وللأصنام (شُفَعَاءُ عِنْدَ اللَّهِ) « أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ » أى يساقون إليه سوق العبيد المفترين على ملوكهم ، « وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ » من الملائكة والنبيين والجوارح : « هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » تهويل عظيم مما يحيق بهم حينئذ ، لظلمهم بالكذب على الله . قيل : ولا يبعد أن تكون الآية للدلالة على أن القرآن ليس بمفترى ،

(١) أخرجه مسلم في : ١ - كتاب الإيمان ، ٧٠ - باب وجوب الإيمان برسالة نبينا

محمد ﷺ إلى جميع الناس ، ونسخ اللل بملته ، حديث رقم ٢٤٠ (طبعنا) .

فإن من يعلم حال من يفترى على الله كيف يرتكبه ، كما مرّ في يونس في قوله تعالى (١) :
(وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩] (الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ)
« الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » أى عن دينه القويم ، كل من يقدر على صدّه
« وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى يطلّبونها موعجة بالكفر ، أو يصفونها لهم بالاعوجاج ، « وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ
أَوْلِيَاءَ . يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ ، مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ)
« أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ » أى يعجزونه تعالى أن يعاقبهم فى الدنيا ،
« وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى يعمونهم من عقابه ، « يُضَاعَفُ لَهُمُ
الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ » لتصاتهم عن الحق ، وبفضهم له ، « وَمَا كَانُوا
يُبْصِرُونَ » لتعميمهم عن آيات الله ، وإعراضهم غاية الإعراض ، كما قال الله (٢) : (وَقَالُوا
لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّمِيرِ) وقال تعالى (٣) : (الَّذِينَ كَفَرُوا
وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ذُنُوبُهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . . .) الآية .

(١) [٢٠ / طه / ٦٩] . (٢) [٦٧ / الملك / ١٠] .

(٣) [١٦ / النحل / ٨٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢١] (أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ)

« أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ » أى سعادتها وراحتها، أو بتسليمها المباداة الأوثان وتركها ما خلقت له من عبادته تعالى ، وهذا الخسران فى النفس أعظم خسارة كما قيل :

إذا كان رأسُ المالِ عمرَكَ فاحترسْ عليه من الإلتفاقِ فى غيرِ واجبٍ
« وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » أى غاب عنهم الآلهة وشفاعتها ، ولم تُجدِّهم شيئاً .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ)

« لَا جَرَمَ » أى حقاً ، أو لامحالة « أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ » أى خضعوا له وحده ،
« أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ،

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ » أى الكفار والمؤمنين « كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ » مثل للكافر
« وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ » مثل للمؤمنين « هَلْ يَسْتَوِيَانِ » أى الفريقان « مَثَلًا » أى حالاً
وصفة ، « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » أى بضرب الأمثال وتدبرها .

ثم قص تعالى على نبيه ﷺ من أنباء الرسل ما يثبت فيه فؤاده ، ليتسلى بما يشاهده من معاناة الرسل قبله من أمهم ، ومقاساتهم الشدائد من جهتهم ، وليعلم قومه أن رسالته كرسالة من تقدمه ، وأن سنة الله فيهم معروفة ، كما قال تعالى (١) « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ » ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ » وكانت امتلات الأرض من شركهم وشروهم « إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ » أى بآنى . وقرئ بالكسر . أى : فقال إني لكم نذير مبين ، آيتن لكم موجبات العذاب ، ووجه الخلاص منه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ)

« أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ » (الباء) مقدره هنا للتعمية . و (لا) ناهية . أى أرسلناه متلبساً بالنهى عن عبادة غير الله . « إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى إن عبادتم غيره « عَذَابَ يَوْمِ أَلِيمٍ » أى مؤلم في الدنيا والآخرة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ

اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ)

« فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ » أى السادة والكبراء ، « مَا تَرَاكَ إِلَّا

(١) [٣٥ / فاطر / ٢٤] .

بَشَرًا مِثْلَنَا « أى لست بملك ، ولكنك بشر ، فكيف أوحى إليك من دوننا .

قال القاشانى : أى فقال الأشراف المليون بأمر الدنيا ، القادرون عليها ، الذين حجبوا بعقلهم ومعقولهم عن الحق : ما زارك إلا بشراً مثلنا ، لسكونهم ظاهريين ، واقفين على حد العقل المشوب بالوهم ، التحير بالهوى ، الذى هو عقل المماش ، لا يرون لأحد طوراً وراء ما بلغوا إليه من العقل ، غير مطلعين على مراتب الاستعدادات والاسكالات ، طوراً بعد طور ، ورتبة فوق رتبة إلى ما لا يعلمه إلا الله ، فلم يشعروا بمقام النبوة ومعناها .

« وَمَا نَزَّاكَ أَنْ تَتَّبِعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُدْنُوا مِنَّا ؛ إِذِ الرِّبَّةُ الرِّفْعَةُ عِنْدَهُمْ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ ، لَيْسَ إِلَّا . كَمَا قَالَ تَعَالَى : (يَمْلِكُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ) .

وقوله تعالى : « بَادِيَ الرَّأْيِ » أى بديهية الرأى ، لأنهم ضماف العقول ، عاجزون عن كسب المماش ، ونحن أصحاب فكر ونظر . قالوا ذلك لاحتجاجهم بعقلهم القاصر عن إدراك الحقيقة ، والفضيلة العنوية ، لقصر تصرفه على كسب المماش ، والوقوف على حده . وأما أتباع نوح عليه السلام ، فإنهم أصحاب هم بميدة ، وعقول حائمة حول القدس ، غير ملتفتة إلى ما يلتفت غيرهم إليه ، فلذلك استنزلوا عقولهم واستحقروها .

تنبيه :

(بَادِي) قرأه أبو عمرو بالهمزة ، والباقون بالياء .

فأما الأول فعناه أول الرأى . بمعنى أنه صدر من غير روية وتأمل ، أول وهلة .
وأما الثانى فيحتمل أن أصله ما تقدم ، فقلبت الياء عن الهمزة تخفيفاً ، ويحتمل أنها أصلية من بدا يبدو ، كملا يعلو . والمعنى : ظاهر الرأى دون باطنه . ولو تَوَمَّلَ لمرف باطنه ، وهوى المعنى كالأول . وعلى كليهما ، هو منصوب على الظرفية . والعامل فيه إما (تراك) أو (اتبعك)

قال الناصر : زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً بمن اتبعه من وجهين :

أحدها - أن المتبعين أراءه ، ليسوا قدوة ولا أسوة .

والثاني - أنهم مع ذلك لم يتروا في اتباعه ، ولا أمعنوا الفكرة في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية . وغرض هؤلاء ألا تقوم عليهم حجة بأن منهم من صدقه وآمن به - انتهى .

أى وكلا الوجهين يبرهنان على جهلهم وقصر عقلهم : أما الأول فلا خفاء في أنه ليس بعار على الحق رذالة من اتبعه ، بل أتباعه هم الأشراف ، ولو كانوا فقراء ، والذين يأبونه هم الأدنون ، ولو كانوا أغنياء . وفي الغالب ، ما يتبع الحق ، إلا ضعفة الخلق ، كما يغلب على الكبراء مخالفته ، كما قال تعالى (١) : (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ) . ولما سأل (٢) هرقل ، ملك الروم ، أباسفيان عن نعوت النبي ﷺ ، قال لهم فيما قال : أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فقال : بل ضعفاؤهم ! فقال هرقل : هم أتباع الرسل .

وأما الثاني : فإن البدار لا اعتناق الحق من أسمى الفضائل ، لأن الحق إذا وضع فلا يبقى للرأى ولا للفكر مجال ، ولا بد من اتباعه حائثذ لكل ذى فطنة ، ولا يتردد إلا غبيّ أو عيّ ولا أجلى مما يدعو إليه الرسل عليهم السلام .

وقوله تعالى : « وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ » خطاب لنوح وأتباعه « عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ » أى تقدم يؤهلكم للنبوّة . واستحقاق التابعة ، لأن الفضل محصور عندهم بالنعى والمال .

قال الزمخشريّ : كان الأشراف عندهم من له جاه ومال ، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يمتقدون ذلك ، وبينون عليه إكرامهم وإهانتهم . ولقد زلّ عنهم أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله ، وإنما يبعده . ولا يرفعه ، بل يرضه . فضلاً عن أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة ، والتأهيل لها . على أن الأنبياء عليهم السلام بُعثوا مرغبين في طلب الآخرة ،

(١) [٤٣ / الزخرف / ٢٣] . (٢) انظر صحيح البخارىّ : ١ - كتاب بدء

الوحي ، ٦ حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع ، حديث رقم ٧ .

مصغرين لشأن الدنيا ، وشأن من أخذ إليها . فما أبعد حالهم عليهم السلام من الانصاف بما يبعد من الله ، والتشرف بما هو ضعة عند الله !
وقوله تعالى : « بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ » أى فيما تدعون من الإصلاح وترتب السعادة والنجاة عليه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُنزِلُكُمْ مَوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ)

قَالَ « أى نوح » « يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْتِنَا » أى برهان « مِن رَّبِّي وَءَاتَانِي رَحْمَةً » أى هداية خاصة كشفية « مِن عِنْدِهِ » أى فوق طور العقل من العلوم الدنية ، ومقام النبوة « فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ » أى لاحتجابكم بالظاهر عن الباطن ، وبالخليقة عن الحقيقة « أَنُنزِلُكُمْ مَوَهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ » يعنى أنكروهكم على قبولها ، وتسرکم على الاهتداء بها ، وأنتم تکرهونها ، ولا تختارونها ، (وَلَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (١) ، فالاستفهام للإنكار ، أى لا تقدر على ذلك ، والذي فى وسعنا دعوتكم إلى الله ، لا أن نضطرکم إليها ، فإن شئتم تلقىها فزکوا نفوسکم ، واتركوا إنكارکم . وفى طى جوابه عليه السلام حث على تدبرها ، ورد عن الإعراض عنها ، بأسلوب فائق .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ، إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ، إِنَّهُمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَالكَفَىٰ أَرَاكُم قَوْمًا تَجْهَلُونَ)

« وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ » أى على تبليغ التوحيد « مَالًا ، إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ »

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٦] .

الله « قال القاشاني : أى الفرض عندكم من كل أمر ، محصورٌ في حصول الماش ، وأنا لا أطلب ذلك منكم ، فتنهبوا لغرضي ، وأنتم عقلاء بزعمكم .

ثم لا يستين أن لا وجه لكرهه دعوته ، إذ لا تنقصهم من دنياهم شيئاً ، فلم يبق إلا خسة أتباعه ، ولا ترتفع إلا بطردهم ، قال « وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا » أى لأنهم أهل القرية والمنزلة عند الله ، وطردهم قد يكون مانعاً لهم من الإيمان أو لأمثالهم . ولا يفعل ذلك إلا عدو لله مناوئٌ لأولياته . ولو كان طردهم سبب إيمانكم ولم يرتدوا ، أخاف من طردهم شكائهم ، وهذا معنى قوله : « إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » أى فيخاصمون طاردهم عنده . أو المعنى : إنهم يلاقونه ويفوزون بقربه ، فكيف أطردهم ؟

ثم أشار إلى أن خستهم ليست مانعة من الإيمان ، إذ لا تلحقهم ، بقوله : « وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ » أى فتخافون لحوق خستهم ، لمشاركتكم إياهم في الإيمان من جهلكم ؛ إذ الخسيس لا تترك مشاركته في كل شيء . أو تجهلون ما يصلح به المرء للقاء الله ، ولا تعرفون الله ولا لقاءه ، لذهاب عقولكم في الدنيا . أو تسفهون وتؤذون المؤمنين ، وتدعونهم أراذل . أو تجهلون أنهم خير منكم ، كما قال تعالى (١) : « وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ » ؟ ثم أشار إلى أن طردهم يستوجب عقابه تعالى بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (وَيَأْقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)

« وَيَأْقَوْمٍ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ » أى : فإن أفادكم طردهم تمزكم ، فإنى أستوجب قهره بطردهم ، ومن يدفعه عنى ؟ وفيه إعلام بأن الطرد ظلم موجب لحلول السخط قطعاً ، وإنما لم يصرح به إشعاراً بأنه غنى عن البيان ، لا سيما وقد تقدم ما يلوح به

(١) [٦ / الأنعام / ٥٣] .

من كرامتهم بإيمانهم بالله واليوم الآخر . « أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » تَعْمَظُونَ فَتَسْتَجِرُوا
عما تقولون ؟

تنبيه :

قال بعضهم : ثمرة ذلك وجوب تعظيم المؤمن، وتحريم الاستخفاف به ، وإن كان فقيراً
عادماً للجاء ، متملقاً بالحرف الوضيعة ، لأنه تعالى حكى كلام نوح وتجهيله للرؤساء ، لما
طلبوا طرد من عدوه من الأراذل . وهي نظير قوله تعالى (١) : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ
رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ » .

ثم أشار إلى أنه عليه السلام بشر مثلهم ، أوتر بالوحي والرسالة فلا يدعى ما ليس له ،
بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٣١] (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ
وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
فِي أَنْفُسِهِمْ ، إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ)

« وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ » أي رزقه وامواله « وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ
إِنِّي مَلَكٌ » أي أنا ادعى الفضل بالنبوة ، لا بالغنى وكثرة المال ، ولا بالاطلاع على الغيب ،
ولا بالملكية ، حتى تنكروا فضلي بفقدان ذلك « وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ »
أي تحتقرهم ، وهم الفقراء المؤمنون « لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا » أي في الدنيا والآخرة ، لهوانهم
عليه ، كما تقولون ؛ إذ الخير عندي ما عند الله ، لا المال « اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ » أي
من الخير ، مني ومنكم ، وهو أعرف بقدرهم وخطرم ، وما يعلم أحد قدر خيرهم لعظمه -

(١) [٦ / الأنعام / ٥٢] .

قاله القاشاني - وحل غيره هذا على تفويض ما في أنفسهم من الإيمان إلى علم الله إرشاداً إلى أن اللائق لكل أحد الايت القول إلا فيما يعلمه يقيناً ، ويبنى أموره على الشواهد الظاهرة ، ولا يجازف فيما ليس فيه على بينة ظاهرة . « إني إذا » أي إذا قلت ذلك « لمن الظالمين » أي لبخس حقهم ، وخط قدرهم ؛ فإن الإيمان الظاهر منهم ، رفع شأنهم ، فإذا ضموا إلى ذلك ، الإيمان القلبي ، كما هو الظاهر منهم ، فلهم جزاء الحسنى ، فمن قطع لهم بدم نيل الخير ، بعد ما آمنوا ، كان ظالماً . وفيه تعريض بأنهم ظالمون في ازدرائهم .

القول في تاويل قوله تعالى :

[٣٢] (قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ)

« قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا » أي أطلتته ، أو أتيتته بأنواعه ، « فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا » أي من العذاب « إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ » .

القول في تاويل قوله تعالى :

[٣٣] (قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ)

« قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ » يعني أنه ليس موكولاً إلى ، وإنما يتولاه الله الذي كفرتم به « وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » أي بالهرب أو بدفمه .

القول في تاويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

« وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ »

أى شىء يجديه إبلاغى ونصحى ، بدعوتكم إلى التوحيد والتحذير من العذاب، إن كان الله يريد إغواءكم ليدمركم «هُوَ رَبُّكُمْ» أى مالك أمركم «وَأِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» أى بعد الموت فيجازيكم بأعمالكم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ، قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ) «أَمْ يَقُولُونَ» أى قوم نوح «افْتَرَاهُ» أى النصح ، فهو من نعمة نبا نوح ، أو ضمير الجمع لكفار مكة، يعنون افتراء محمد صلوات الله عليه لنبا نوح ، جىء به معترضاً في نضاعيفه ، تحقيقاً له ، وتأكيذاً لوقوعه ، وتشويقاً للسامعين إلى استماعه؛ إذ بقي منها الأهم وهو نتيجته . «قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي» أى إنم كسب ذنبي «وَأَنَا بِرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ» .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ)

«وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ» أى بعد مبالغته فى بذل الوسع فى النصح مع عدم نفعه إليهم «أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ» أى لا تحزن «بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» أى من التكذيب والإيذاء فقد انتهى أمرهم، وحان وقت الانتقام منهم . وقيل : المعنى لا تبتئس ، أى لإهلاكهم شفقة عليهم ، لأنهم إنما يهلكون بما كانوا يفعلون من معاندتهم معك ، فليسوا محلاً لشفتقتك ولا لرحمتنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا، إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ) «وَاصْنَعِ الْفُلْكَ» أى للتخلص من عذابهم «بِأَعْيُنِنَا» أى بحفظنا وكلاءتنا ، كأن

معه من الله عز وجل حفاظاً وحراساً ، يكلاًونه بأعينهم من التمدى من الكفرة ، ومن الزيف في الصنعة « وَوَحِينًا » أى إليك ، كيف تصنعها وتعلمينا وإلهامنا . قيل : لم يكن قبله سفينة . « وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى ولا تدعنى ، فى استدفاع العذاب عنهم ، بشفاعتك « إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ » أى محكوم عليهم بالطوفان ، وقد وجب ذلك ، فلا سبيل إلى كفه . كقوله تعالى (١) « يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَمَبْئُتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ)

« وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ » حكاية حال ماضية لاستحضار صورتها العجيبة . وقيل : تقديره وأخذ يصنع الفلك ، « وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ » أى هزئوا به ، بمعالجة السفينة « قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا » أى فى صنع الفلك « فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ » أى لجهلكم « كَمَا تَسْخَرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ) « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ » أى فى الدنيا فيجمله محلاً للسخرية « وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » أى فى الآخرة ، يدوم معه الخزى . وقوله تعالى :

(١) [١١ / هود / ٧٦] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ

وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا » أى بإهلاك قومهم . و (حَتَّىٰ) « غاية لقوله (وَيَصْنَعُ) وما

بينهما حال من الضمير فيه ، و (سَخِرُوا مِنْهُ) جواب (كَلَّمَا) . « وَفَارَ التَّنُّورُ » أى

وجه الأرض أو كل مفجر ماء ، أو محفل ماء الوادى ، أو عين ماء معروفة ، أو السكانون

الذى يخبز فيه ، أو تنوير الفجر - أقوال حكاهم اللغويون والمفسرون - زاد بعضهم احتمال

أن يكون هذا كناية عن اشتداد الأمر ، كما يقال : (حى الوطيس) والوطيس التنور ،

وهو من فصيح الكلام وبلينه ، وعندى أنه أظهر الأوجه المذكورة وأرقها وأبدعها

وأبلغها ، وإن حاول الرازى رده ، كأنه قيل : واشتد الأمر ، وقوى انهمار الماء ونبوعه .

وهذا الإيجاز في مجازه الرهيب ، قد بينته آيات أخر ، وهى ^(١) : (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ

مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ...) الآيات - ومما يؤيده

شواهد لشدّة الأمر من السماء والأرض ، فيطابق هذه الآيات . وأما غيره فمقصود على ناحية

الأرض فقط . وجلى أن الأمر كان أعم - والله أعلم - .

« قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا » أى فى السفينة « مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ » أى صنفين من البهائم

والطيور وما يبدب على وجه الأرض « اثْنَيْنِ » أى ذكراً وأنثى .

قال أبو البقاء : يقرأ (كَلِمًا) بالإضافة ، وفيه وجهان :

أحدهما - أن مفعول (احْمِلْ) (اثْنَيْنِ) و (مِنْ) حال .

والثانى - أن (مِنْ) زائدة ، والمفعول (كَلِمًا) ، و (اثْنَيْنِ) توكيد . ويقرأ مِنْ

(٤) [٥٤ / القمر / ١١ و ١٢] .

كُلِّ (بالتنوين ، فـ (زَوْجَيْنِ) مفعول (اَحْمِلْ) ، و (اُثْنَيْنِ) توکید له ، و (مِنْ) متعلقة بـ (اَحْمِلْ) أو حال . انتهى .

« وَأَهْلَكَ » أى من يتصل بك فى دينك وسيرتك من أقاربك ، « إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ » أى وجب عليه « الْقَوْلُ » أى بالإغراق بسبب ظلمه ، « وَمَنْ ءَامَنَ » أى احمه معك فيها . قال أبو السعود : وإفراد الأهل منهم للاستثناء المذكور ، وإيثار صيغة الإفراد فى (ءَامَنَ) محافظة على لفظ (مَنْ) للإذعان بقتلهم ، كما أرب عنه قوله ، عزّ قائلًا : « وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤١] (وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

« وَقَالَ » أى نوح عليه السلام لمن معه من المؤمنين « ارْكَبُوا فِيهَا » أى السفينة « بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا » قال الزمخشريّ : يجوز أن يكون كلاماً واحداً ، وكلامين . قال كلام الواحد أن يتصل (بِسْمِ اللَّهِ) بـ (ارْكَبُوا » حالاً من الواو ، بمعنى : اركبوا فيها مسمين الله ، أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ، ووقت إرسائها ، إمّا لأن الجرى والمرسى للوقت ، وإمّا لأنهما مصدران ، كالإجراء والإرسال ، حذف منهما الوقت المضاف ، كقولهم : (خفوق النجم) و (مقدم الحاج) ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء . وانتصابهما ، بما فى (بِسْمِ اللَّهِ) من معنى الفعل ، أو بما فيه من إرادة القول .

والكلامان : أن يكون (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) جملة من مبتدأ وخبر مقتضبة ، أى : بسم الله إجراؤها وإرساؤها يروى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال : بسم الله ، فجرت . وإذا أراد أن ترسوا قال : بسم الله ، فرست . ويجوز أن يقحم الاسم ، كقوله (١) : ثم اسم السلام عليكما . ويراد : بالله إجراؤها وإرساؤها ، أى بقدرته وأمره . ومعنى قولنا : (جملة

(١) تمام البيت :

إلى الحولِ ، ثم اسمُ السلامِ عليكُمَا ومن يَبِكِ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدِ اعْتَدَرَ
وقائله لبيد ، يخاطب ابنتيه .

مقتضبة) أن نوحاً عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته . ويحتمل أن يكون غير مقتضبة ، بأن تكون في موضع الحال من ضمير (الفلك) كأنه قيل : اركبوا فيها مجرة ومرساة بسم الله ، بمعنى التقدير ، كقوله (١) : (فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ - انتهى - .

تنبيهات :

الأول - قرأ الإخوان - حمزة والكسائي وحفص - (مَجْرَاهَا) بفتح الميم ، والباقون بضمها . واتفق السبعة على ضم ميم (مرساها) . وقد قرأ ابن مسعود والقفطي (مَرَسَاهَا) بفتح الميم أيضاً . وقرئ بضم الميم وكسر الراء والسين وياء بعدها ، بلفظ اسم الفاعل . مجرورى المحل ، صفتين لله .

الثاني - ما وقع بعد الراء من الألفات المنقلبة عن الياء ، التي للتأنيث ، أو للإلحاق ، أمثالهُ حمزة والكسائي وأبو عمرو ، ووافقهم حفص في إمالة (مَجْرَاهَا) هنا ، ولم يُعمل غيره .

الثالث - أخذ بعضهم من الوجه الأول في (بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا) أعني تقدير قائلين ، استحباب التسمية . وذكره تعالى عند ابتداء الجرى والإرساء . وهو مؤيد بقوله تعالى في سورة المؤمنون (٢) : (فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ) . وقوله تعالى (٣) : (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلُكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرَوْنَ كَيْبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا) الآية - وجاءت السنة بالحث على ذلك ، والندب إليه أيضاً .

(١) [٣٩ / الزمر / ٧٣] . (٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢٩ و ٢٨] .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ١٢ ، ١٣] .

وقوله تعالى : « إِنَّ رَبِّي لَمَفُورٌ رَحِيمٌ » جملة مستأنفة ، بيان للموجب للإنباء ، أى لولا مغفرته ورحمته لفرقتم وهلكتم مثل قومكم ، أو تمليل لـ (ارْكَبُوا) لما فيه من الإشارة إلى النجاة ؛ فكأنه قيل : اركبوا لينجيكم الله .
وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ)

« وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ » متصل بمحذوف ، دل عليه (ارْكَبُوا) ، أى فركبوا مسمين وهى تجرى ، وهم فيها . « فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ » وذلك أنه لما تفتحت أبواب السماء بالماء ، وتفجرت ينابيع الأرض تعاظمت المياه ، وعلت أكناف الأرض ، وارتفعت فوق الجبال الشاخبة بخمسة عشر ذراعا ، وكان ما يرتفع من الماء عند اضطرابه من أمواجه كالجبال .
« وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ » أى فى متنحى عن أبيه « يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا » أى ادخل فى ديننا ، واصحبنا فى السفينة « وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ » أى فى الدين والانزال ، الهالكين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (قَالَ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ)

« قَالَ سَأْوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ » أى فلا أغرق « قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ » أى لا مانع اليوم من بلائه ، وهو الطوفان ، إلا الراحم وهو الله تعالى . أو لا عاصم إلا مكان من رحم ، وهم المؤمنون ، يعنى السفينة . أو لا عاصم ،

بمعنى لا ذا عصمة إلا من رحمه الله . أو (إلا) منقطعة ، أى لكن من رحمه فهو المعصوم .
قال الناصر : الاحتمالات الممكنة أربعة : لا عاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ،
ولا عاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم . فالأولان استثناء من الجنس ، والآخران
من غير الجنس . أى : فيكون منقطعاً . أى لكن المرحوم يعصم ، على الأول . ولكن
الراحم يعصم من أراد ، على الثانى .

وزاد الزمخشريّ خامساً وهو : لا عاصم إلا مرحوم ، على أنه من الجنس ، بتأويل حذف
المضاف ، تقديره : لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم . والمراد بالنفى التعريض بعدم عصمة الجبل ،
وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة . والكل جائز وبعضها أقرب من بعض - انتهى - .

« وَحَالٍ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ » أى صار حائلاً بين نوح وابنه ، أو بين ابنه والجبل ، لارتفاعه
فوقه « فَكَانَ » أى ابنه مع كونه فوق الجبل « مِنَ الْمُفْرَقِينَ » أى الهالكين بالفرق .
وفيه دلالة على هلاك سائر الكفرة على أبلغ وجه ، فكان ذلك أمراً مقرر الوقوع ،
غير مفتقر إلى البيان . وفى إيراد (كان) دون (صار) مبالغة فى كونه منهم - أفاده
أبو السعود - . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ
وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)

« وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ
عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ » إعلام بأنه لما غرق أهل الأرض ، ولم يبق
من كفر بالله ديار ، أمر تعالى الأرض أن تبلع ماءها الذى نبع منها ، واجتمع عليها ، وأمر
السماء أن تقلع عن المطر ، فنضب الماء ، وقضى أمر الله بإبحاء من نجا ، وإهلاك من هلك .

ولما أخذت المياه تتناقص وتراجع إلى الأرض شيئاً فشيئاً ، وظهرت رؤس الجبال، استقرت السفينة على الجودي ، وهو جبل بالجزيرة قرب الموصل .
 و (بُعْدًا) مصدر منصوب بمقدر ، أى وبعدوا بعداً . يقال : بعد ببدأ إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ، ولذلك اختص بدعاء السوء ك (جَدْعًا) و (تَمَسًّا) و (اللام) متعلقة بمحذوف ، أو للبيان ، أو متعلقة بـ (قيل) أى قيل لأجلهم هذا القول .
 والتعرض لوصف الظلم للإشعار بعلميته للهلاك ، واتذكر ما سبق من قوله : (وَلَا تَخْطُبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُفْرَقُونَ) .

تنبية :

هذه الآية ، بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحتوت من بدائع الفرائد نهايتها . وقد اهتم علماء البيان لإيضاح نخب من لطائفها . ومن أوسمهم مجالاً في مضمار معارفها ، الإمام السكاكي ، فقد أطال وأطاب في كتابه (المفتاح) وتلطف في التبيان بألطف من نسيم الصباح ، ونحن نورده بتمامه ، لنعطر الأبواب بعرف مبتدئه ومسك ختامه . قال عليه الرحمة في بحث (البلاغة والفصاحة) ، وتعريفه الأولى بأنها بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حدا له اختصاص بتوفية خواص التراكيب حقها ، وإيراد أنواع التشبيه والمجاز والكناية على وجهها ، ثم تقسيمه الفصاحة إلى ما يرجع إلى المعنى ، وهو خلوص الكلام عن التعميد . وإلى اللفظ ، وهو كونه عربياً أصلياً ، جارياً على قوانين اللغة ، أدور على السنة الفصحاء ، أكثر في الاستعمال ، ما صورته :

وإذ قد وقفت على البلاغة ، وعثرت على الفصاحة المنووبة واللفظية ، فأنا أذكر على سبيل الأنموذج ، آية أ كشف لك فيها ، عن وجوه البلاغة والفصاحتين ، ما عسى يسترها عنك . ثم إن ساعدك الذوق ، أدركت منها ما قد أدرك من تحذوايها ، وهى قوله ، علت كلمته : (وَ قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ . . . إلى . . . الظَّالِمِينَ) .

والنظر في هذه الآية من أربع جهات : من جهة علم البيان ، ومن جهة علم المعاني ، وهما مرجعا البلاغة ، ومن جهة الفصاحة المعنوية ، ومن جهة الفصاحة اللفظية .

أما النظر فيها من جهة علم البيان ، وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستمارة والكتباية وما يتصل بها فنقول : إنه عز سلطانه ، لما أراد أن يبين معنى : أردنا أن نرُدَّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها فارتد ، وأن تقطع طوفان السماء ، فانقطع ، وأن نفيض الماء النازل من السماء ففاض ، وأن نقضى أمر نوح ، وهو إنجاز ما كنا وعدنا من إغراق قومه فقضى ، وأن نسوي السفينة على الجودي فاستوت . وأبقينا الظلمة غرقى بنى الكلام على تشبيه المراد ^(١) بالأمور الذي لا يتأتى منه ، لكمال هيئته ، العصيان ، وتشبيه تكوين المراد ^(٢) بالأمر الجزم النافذ في تكوين المقصود ، تصويراً لاقتداره العظيم ، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام تابعة لإرادته ، إيجاداً وإعداماً ، ولشيئته فيها تغييراً وتبديلاً ، كأنها عقلاء يميزون ، قد عرفوه حق معرفته ، وأحاطوا علماً بوجوب الانقياد لأمره ، والإذعان لحكمه ، وتحتم بذل المجهود عليهم في تحصيل مواده ، وتصوروا مزيد اقتداره ، فمظمت مهابته في نفوسهم ، وضربت سرادقها في أفنية ضمايرهم . فكما يلوح لهم إشارته كان المشار إليه مقدماً ، وكما يرد عليهم أمره كان المأمور به متمماً . لا تلقى لإشارته

(١) أى المراد منه . أعنى الذى أريد منه أن يتعلق به فعل ، وهو ههنا الأرض والسماء ، فحذف الجار وأوصل الفعل إلى الضمير فاستتر فيه . كما في لفظ (المشترك) فإن أصله المشترك فيه . والمعنى أنه شبه الأرض والسماء بالأمور الذى لا يتأتى منه ، لكمال خوفه من الأمر ، العصيان ، وهذا التشبيه هو المصحح للنداء ، كما سيأتى . هـ (سيد) قدس سره .

(٢) أراد بلفظ (المراد) هنا معناه الظاهر . أعنى ما أريد من المراد منه ، وهو الذى عبر عنه بالبلغ والإفلاق . ولتخالف معنى (المراد) في الموضعين أعاد الظاهر ، وهذا التشبيه الثانى مصحح لا يراد صيغة الأمر . هـ (سيد) .

بغير الإمضاء والالتقياد ، ولا لأمره بغير الإذعان والامتثال . ثم بنى على تشبيهه هذا^(١) نظم الكلام ، فقال جل وعلا : (وَقِيلَ) ، على سبيل المجاز - أى المرسل - عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل . وجعل قرينة المجاز الخطاب للجهد وهو : يا أرض ويا سماء ! ثم قال كما ترى : يا أرض ويا سماء ، مخاطباً لهما على سبيل الاستعارة للشبه المذكور . ثم استعار لغفور^(٢) الماء في الأرض البلع ، الذى هو إعمال الجاذبة في المطعوم ، للشبه بينهما ، وهو الذهاب إلى مقرّ خفيّ . ثم استعار الماء للغذاء ، استعارة بالكناية ، تشبيهاً له بالغذاء ، لتقوى الأرض بالماء في الإنبات للزروع والأشجار ، تقوى الآكل بالطعام . وجعل قرينة الاستعارة لفظة (اِبْلَمِي) لكونها موضوعة للاستعمال في الغذاء دون الماء . ثم أمر على سبيل الاستعارة للشبه المقدم^(٣) ذكره ، وخاطب في الأمر ترشيحاً لاستعارة النداء . ثم قال : (مَاءِكِ) بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز ، تشبيهاً لاتصال الماء بالأرض ، باتصال الملك بالملك . واختار ضمير الخطاب لأجل الترشيح . ثم اختار لاحتباس المطر الإفلاج الذى هو ترك الفاعل الفعل للشبه بينهما في عدم ما كان . ثم أمر على سبيل الاستعارة ، وخاطب في الأمر قائلاً : (أَقْلَمِي) ، لثقل ما تقدم في (اِبْلَمِي) . ثم قال : (وَغَيْضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا) ، فلم يصرح بمن غاض الماء ، ولا بمن قضى الأمر ، وسوّى السفينة . وقال : (بُعْدًا) ، كما لم يصرح بقائل : يا أرض ويا سماء في صدر الآية ، سلوكاً في كل واحد من ذلك سبيل الكناية ، أن^(٤) تلك الأمور العظام لا تقاى إلا من ذى قدرة

(١) يعنى التشبيهين المتقدمين .

(٢) قوله : (ثم استعار لغفور المساء في الأرض البلع) ، جملة في الكشف مستعاراً للكشف ، لدلالته على جذب الأرض ما عليها ، كالبلع بالنسبة إلى الحيوان ، ولأن الكشف فعل الأرض ، والغور فعل الماء . وهذا من دقائق الزخشرى عليه الرحمة .

(٣) يعنى الثانى وهو تشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم .

(٤) بيان لسبيل الكناية أو تعليل لـ (سلوكا) بتقدير اللام .

لا يُكْتَنَهُ . فَمَهَّارٌ لَا يَفَالِبُ . فَلَا مَجَالَ لِذَهَابِ الرَّوْمِ إِلَى أَنْ يَكُونَ غَيْرَهُ - جَلَّتْ عِظَمَتُهُ - قَائِلٌ يَا أَرْضُ يَا سَمَاءُ ، وَلَا غَائِضٌ مِثْلُ مَا غَائِضٌ ، وَلَا قَاضِيٌ مِثْلُ ذَلِكَ الْأَمْرِ الْهَائِلِ ، وَأَنْ تَكُونَ تَسْوِيَةً السَّفِينَةِ وَإِقْرَارَهَا ، بِتَسْوِيَةِ غَيْرِهِ وَإِقْرَارِهِ . ثُمَّ خَتَمَ الْكَلَامَ بِالْتَّمْرِ بِرِضٍ^(١) ، تَقْنِيهَا لِسَالِكِي مَسْلِكِهِمْ فِي تَكْذِيبِ الرِّسْلِ ، ظَاهِمًا لِأَنَّهُمْ لَا غَيْرَ ، خَتَمَ إِظْهَارِ ، لِمَكَانِ السَّخَطِ ، وَلِجَهَةِ اسْتِحْقَاقِهِمْ إِيَّاهُ ، وَأَنْ قِيَامَةَ الطُّوفَانِ ، وَتِلْكَ الصُّورَةَ الْهَائِلَةَ ، مَا كَانَتْ إِلَّا لَظْمَهُمْ^(٢) .

وأما النظر فيها من حيث علم المعاني ، وهو النظر في فائدة كل كلمة منها ، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها ، فذلك أنه اختير (يا) دون سائر أخواتها ، لكونها أكثر في الاستعمال ، وأنها دالة على بمد المنادى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة ، وإبداء شأن العزة والجبروت ، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به ، ولم يقل : يا أرض ! بالكسر لإمداد التهاون^(٣) ، ولم يقل : يا أيها الأرض ! لقصد الاختصار مع الاحتراز عما في (أيها) من تكلف التنبيه غير المناسب بالمقام . واختير لفظ (الأرض) دون سائر أسماؤها ، لكونه أخف وأدور^(٤) . واختير لفظ السماء^(٥) لمثل ما تقدم في الأرض ، مع قصد المطابقة^(٦) . واختير لفظ (ابلى) على (ابتلى) لكونه أخصر ، ولجئ خط التجانس بينه وبين (ألقى) أوفر . وقيل : (ماءك) بالإفراد دون الجمع ، لما كان في الجمع من صورة الاستكثار التأتى عنها

(١) أى التمريض بدعاء الهلاك على قوم نوح . هـ .

(٢) أى كما يشعر به تمليق الحكم بوصف يناسبه . هـ .

(٣) أى لأن إضافة الأرض إلى نفسه تقتضى تشريفًا للأرض ، وتكريمًا لها ، فتركها

إمداد للتهاون . هـ (سيد) . (٤) أى فى الاستعمال من القبراء والمقلة . هـ . (سيد) .

(٥) أى من الخضراء والمظلة . هـ .

(٦) لأنها بهذا الاسم أشهر مقابلة للأرض . هـ . (سيد) .

مقام إظهار الكبرياء والجبروت ، وهو الوجه في أفراد (الأرض) و (السماء) . وإنما لم يقل : (ابلعى) بدون المفعول ، أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنت الماء بأسرهن ، نظراً إلى مقام ورود الأمر ، الذى هو مقام عظمة وكبرياء . ثم إذا بين المراد اختصر الكلام مع (أَقْلِعِي) احترازاً عن الحشو المستغنى عنه ، وهو - أى الاختصار - الوجه في أن لم يقل : قيل يا أرض ابلعى ماءك فبلعت ، ويا سماء أقلمى فأقلمت . واختير (غيضى) على (غييض) المشدد لكونه أخصر ، وقيل (الماء) ، دون أن يقال : ماء طوفان السماء . وكذا الأمر دون أن يقال : أمر نوح ، وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحاً من إهلاك قومه ، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك . ولم يقل : سويت على الجودى ، بمعنى أقرت ، على نحو : (قيل) و (غييض) و (قضى) في البناء للمفعول ، اعتباراً^(١) لبناء الفعل للفاعل مع السفينة في قوله (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ) مع قصد الاختصار في اللفظ . ثم قيل : (بُعْدًا لِلْقَوْمِ) ، دون أن يقال : ليبعد القوم ، طلباً للتأكيد^(٢) مع الاختصار ، وهو نزول (بُعْدًا) وحده ، منزلة ليبعدوا بعداً ، مع فائدة أخرى : وهى استعمال اللام مع (بُعْدًا) الدال على معنى أن البُعد حق لهم . ثم أطلق الظلم ليتناول كل نوع ، حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم ، لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرسل . هذا من حيث النظر إلى تركيب الكلام .

وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل : فذاك أنه قد قدم النداء على الأمر فقيل : (يَا أَرْضُ ابلعى ، ويا سماء أقلمى !) دون أن يقال : ابلعى يا أرض ، وأقلمى يا سماء ، جرياً على مقتضى اللام فيمن كان مأوراً حقيقة ، من تقديم التنبيه ، ليكن الأمر الوارد دعيبه في نفس المنادى ، قصداً بذلك

(١) أى اعتبار الكون الفعل المقابل للاستقرار ، أعنى الجريان ، منسوباً إلى السفينة على

صيغة المبني للفاعل . ا هـ (سيد) .

(٢) أى لتأكيد الفعل .

لمعنى الترشيح^(١). ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، وابتدىٰ به لابتداء الطوفان منها^(٢) ، وبنزولها لذلك فى القصة منزلة الأصل ، والأصل بالتقديم أولى ، ثم أتبعها قوله : (وغيض الماء) لاتصاله بقصة الماء ، وأخذه بحجزتها . الأ ترى أصل الكلام (قيل يا أرض ابلعى ماءك ، فبلعت ماءها ، ويا سماء أقلعى عن إرسال الماء ، فأقلت عن إرساله ، وغيض الماء النازل من السماء ، ففاض) ثم أتبعه ما هو مقصود من القصة وهو قوله : (وَفُضِيَ الْأَمْرُ) ، أى أنجز الموعد من إهلاك الكفرة ، وإنبجاء نوح ومن معه فى السفينة ، ثم أتبعه حديث السفينة ، وهو قوله (وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ)^(٣) . ثم ختمت القصة بما ختمت^(٤) . هذا كله نظر فى الآية من جانبى البلاغة^(٥) .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية ، فهى كما ترى نظم للمعانى لطيف ، وتأديبة لها ملخصة مبينة ، لا تعقيد يثمر الفكر فى طلب المراد ، ولا التواء يُشيك الطريق إلى المراد ، بل إذا جربت نفسك عند استماعها ، وجدت ألفاظها تسابق معانيها ، ومعانيها تسابق ألفاظها . فما من لفظة فى تركيب الآية ونظمها تسبق إلى أذنك ، إلا ومعناها أسبق إلى قلبك .

وأما النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية : فألفاظها على ما نرى عربية ، مستعملة جارية على قوانين اللغة ، سليمة من التنافر ، بعيدة عن البشاعة ، عذبة على المدّبات^(٦) ، سلسلة على الأسلات^(٧) ، كلٌّ منها كالماء فى السلاسة ، وكالمسل فى الحلاوة ، وكالنسيم

- (١) أى ترشيح المكنتية فى الأرض والسماء ، حيث شبهتا بالمأمور ، ثم سلك معهما الطريقة التى تسلك معه . انتهى (سيد) .
- (٢) أى من الأرض ، حيث فارتنورها . انتهى .
- (٣) أى لتأخره عنه فى الوجود . انتهى . (٤) أى بالتعريض الذى سبق تحقيقه . انتهى .
- (٥) أى علم المعانى الباحث عن خواص التراكيب ، وعلم البيان الكاشف عن أنواع التشبيه والمجاز والكناية . انتهى (سيد) .
- (٦) جمع عذبة بالتحريك : طرف اللسان .
- (٧) جمع أسلة : المستدق من اللسان . انتهى .

في الرقة . ولله در شأن التنزيل ! لا يتأمل العالم آية من آياته ، إلا أدرك لطائف لانسع الحصر ولا تظان الآية مقصورة على ما ذكرت ، فلعل ما ذكرت أكثر مما ذكرت ، لأن المقصود لم يكن إلا مجرد الإرشاد لكيفية اجتناء ثمرات علمي المعاني والبيان ، وأن لا علم في باب التفسير (بعد علم الأصول) أقرأ منهما على المرء لمراد الله تعالى من كلامه ، ولا أعون على تعاطي تأويل مشتبهاته ، ولا أنفع في درك لطائف نكته وأسراره ، ولا أكشف للقناع عن وجه إعجازه ، وهو الذي يوفي كلام رب العزة من البلاغة حقه ، ويصون له في مظان التأويل ماء ورونقه؛ وَلَكُمْ من آية من آيات القرآن، تراها قد ضيقت حقها، واستلبت ماءها ورونقها، إن وقعت إلى من ليسوا من أهل هذا العلم ، فأخذوا بها في مأخذ مردودة ، وحملوها على محامل غير مقصودة ، وهم لا يدرون ، ولا يدرون أنهم لا يدرون ، فتلك الآي من مآخذهم في عويل ، ومن محاملهم على ويل طويل ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنماً - انتهى كلام السكاكي - .

وقد تصدى أبو حيان أيضاً في تفسيره المسمى بـ(النهر) للظائفها ، وساق أحدًا وعشرين نوعاً من البديع . وألف السيد محمد بن إسماعيل الأمير رسالة فيها سماها (النهر المورود في تفسير آية هود) أورد تلك الأنواع البديعية أيضاً ، وهي : المناسبة ، والمطابقة ، والمجاز ، والاستعارة ، والإشارة ، والتمثيل ، والإرداف ، والتعليل ، وصحة التقسيم ، والاحتباس ، والإيضاح ، والمساواة ، وحسن النسق ، والإيجاز ، والتسليم ، والتهذيب ، وحسن البيان ، والتمكين ، والتجنيس ، والمقابلة ، والذم ، والوصف .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ)

« وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي » إعلام بأن نوحاً حملته شفقة الأبوة ، وتمطف الرحم والقربة ، على طلب نجاته ، لشدة تعلقه به ، واهتمامه بأمره . وقد راعى مع ذلك أدب الحضرة ، وحسن السؤال فقال : « وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ » ، ولم يقل : لا تخلف وعذك بإنجاء أهلي ، وإنما قال ذلك لفهمه من الأهل ذوى القربة الصورية ، والرحم النسبية ، وغفل ، لفرط التأسف على ابنه ، عن استثنائه تعالى بقوله : (إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ) ، ولم يتحقق أن ابنه هو الذى سبق عليه القول ، فاستعطف ربه بالاسترحام ، وعرض بقوله : « وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ » إلى أن العالم العادل والحكيم لا يخلف وعده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

« قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » أى الموعود بإنجاؤهم ، بل من المستثنين لكفرهم ، أو ليس منهم أصلاً ، لأن مدار الأهلية هو القربة الدينية ، ولا علاقة بين المؤمن والكافر . قال القاشانى : أى أن أهلك فى الحقيقة هو الذى بينك وبينه القربة الدينية ، واللحمة المعنوية ، والاتصال الحقيقى لا الصورى . كما قال أمير المؤمنين على رضى الله عنه : ألا وإن ولى محمد ، من أطاع الله ، وإن بمدت لحته . ألا وإن عدو محمد ، من عصى الله ، وإن قربت لحته .

« إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ » بين انتفاء كونه من أهله بأنه غير صالح ، تنبيهاً على أن أهله

هم الصالحاء ، أهل دينه وشريعته ، وإنه لتماديه في الفساد والغي ، كأن نفسه عمل غير صالح ، وتلويحاً بأن سبب النجاة ليس إلا الصلاح ، لا قرابته منك بحسب الصورة ، فن لا صلاح له ، لا نجاة له . وهذا سر إشار (غَيْرُ صَالِحٍ) على (عمل فاسد) .

وقد قرأ يعقوب والسكسائي (عَمِلَ) بلفظ الماضي ، والباقون بلفظ المصدر ، بجمله نفس العمل ، مبالغةً ، كما بينا .

« فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ » أى لا تلتمس منى ملتصماً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب ؟ حتى تقف على كنهه . قالوا : والنهى إنما هو عن سؤال ما لا حاجة له إليه أصلاً ، إما لأنه لا يهيم ، أو لأنه قامت القرائن على حاله ، كما هنا ، لا عن السؤال للاسترشاد .

« إِنِّي أَعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ » أى أنهاك أن تكون منهم بسؤالك إياى ما لم تعلم . وقد تنبه ، عليه السلام ، عند ذلك التأديب الإلهي ، والعتاب الرباني ، وتموذب قوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٧] (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

« قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي » أى ما فرط منى « وَتَرْحَمْنِي » أى بالوقوف على ما تحب وترضى « أَكُنُ مِنَ الْخَاسِرِينَ » أى الذين خسروا أنفسهم ، بالاحتجاج عن علمك وحكمتك .

تنبيه :

ظاهر التنزيل أن ابته المذكور اصلبه . ويروى عن الحسن ومجاهد ومحمد بن جعفر الباقر أنه كان ابن امراته ، ريبه . وأيده بمضهم بقراءة على : (ونادى نوح ابنها) - والله أعلم - . ثم أنبا تعالى عما قيل لنوح ، بعد أن أرسى السفينة على الجودي ، بقوله :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٨] (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ
وَأُمَّمٌ مِّنْ سِمْطِهِمْ هُمْ يَسْتَمِتُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ)

« قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ » أى انزل من السفينة « بِسَلَامٍ مِنَّا » أى سلامة « وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ » أى فى السفينة على دينك وطريقتك إلى آخر الزمان « وَأُمَّمٌ مِّنْ سِمْطِهِمْ هُمْ يَسْتَمِتُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى فى الحياة الدنيا لاحتجاجهم بها « نَمُّ يَسْتَمِتُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى فى الدنيا ، أو فى الآخرة ، أو فيهما .

لطيفة :

ذهب العلماء ، فى الطوفان ، مذاهب شتى . فالأكثر على أنه عمّ الأرض بأسرها ، ومن ذاهب إلى أنه لم يعم إلا الأرض المأهولة وقتئذ بالبشر ، ومن جاح إلى أنه لم يعمها كلها ولم يهلك البشر كلهم . ولكل فريق حجج يدعم بها مذهبه :

قال تقي الدين المقرئى فى (الخطط) : إن جميع أهل الشرائع ، أتباع الأنبياء ، من المسلمين واليهود والنصارى قد أجمعوا على أن نوحا هو الأب الثانى للبشر ، وأن العقب من آدم عليه السلام انحصر فيه ، ومنه ذرأ الله جميع أولاد آدم ، فليس أحد من بنى آدم إلا وهو من أولاد نوح ، وخالفت القبط والمجوس وأهل الهند والصين ذلك ، فأنكروا الطوفان . وزعم بعضهم أن الطوفان إنما حدث فى إقليم بابل وما وراءه من البلاد الغربية فقط ، وأن أولاد (كيومرت) الذى هو عندهم (الإنسان الأول) ، كانوا بالبلاد الشرقية من بابل ، فلم يصل الطوفان إليهم ، ولا إلى الهند والصين . والحق ما عليه أهل الشرائع ، وأن نوحا عليه السلام ، لما أنجاه الله ومن معه بالسفينة ، نزل بهم ، وهم ثمانون رجلا سوى أولاده ، فأتوا بعد ذلك ، ولم يعقبوا ، وصار العقب من نوح فى أولاده الثلاثة . وبؤيد هذا قول الله تعالى عن نوح (١) : (وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ) اه .

(١) [٣٧ / الصافات / ٧٧] .

ونحوه في الكامل لابن الأثير .

وقال ابن خلدون : اتفقوا على أن الطوفان الذي كان في زمن نوح وبدعوته ، ذهب بممران الأرض أجمع ، بما كان من خراب المعمور ، وهلك الذين ركبوا معه في السفينة ، ولم يبقوا ، فصار أهل الأرض كلها من نسله ، وعاد أباً ثانياً للخليقة - انتهى - .

قال بعضهم (في تقرير عموم الطوفان ، مبرهننا عليه) إن مياه الطوفان قد تركت آثاراً عجيبية في طبقات الأرض الظاهرة ، فيشاهد في أماكن رواسب بحرية ممتزجة بالأصداف ، حتى في قمم الجبال ، ويرى في السهول والمفاوز بقايا حيوانية ونباتية مختلطة بمواد بحرية ، بعضها ظاهر على سطحها ، وبعضها مدفون على مقربة منه . واكتشف في الكهوف عظام حيوانية متخالفة الطباع ، بميدة الانتلاف ، معها بقايا آلات صناعية ، وآثار بشرية ، مما يثبت أن طوفاناً قادها إلى ذاك المكان ، وجمعها قسراً فأبادهها ، فتغلغلت بين طبقات الطين فتحجرت ، وظلت شهادة على ما كان ، بأمر الخالق تعالى - انتهى - .

وقد سئل مفتي مصر الإمام الشيخ محمد عبده عن تحقيق عموم الطوفان ، وعموم رسالة نوح ، فأجاب بما صورته :

أما القرآن الكريم فلم يرد فيه نص قاطع على عموم الطوفان ، ولا عموم رسالة نوح عليه السلام ، وما ورد من الأحاديث ، على فرض صحة سندها ، فهو آحاد لا يوجب اليقين . والمطلوب في تقرير مثل هذه الحقائق هو اليقين لا الظن ، إذا عدت اعتقادها من عقائد الدين . وأما المؤرخ ، ومريد الاطلاع ، فله أن يحصل من الظن ما ترجحه عنده ثقتة بالرأى أو المؤرخ ، أو صاحب الرأى . وما يذكره المؤرخون والمفسرون في هذه المسألة لا يخرج عن حد الثقة بالرؤية ، أو عدم الثقة بها ، ولا يتخذ دليلاً قطعياً على معتقد ديني . أما مسألة عموم الطوفان في نفسها ، فهي موضوع نزاع بين أهل الأديان ، وأهل النظر في طبقات الأرض . وموضوع خلاف بين مؤرخي الأمم : فأهل الكتاب ، وعلماء الأمة الإسلامية على أن الطوفان كان

عامًا لكل الأرض ، ووافقهم على ذلك كثير من أهل النظر ، واحتجوا على رأيهم بوجود بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال ، لأن هذه الأشياء مما لا يتكوّن إلا في البحر ، فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء صعد إليها مرة من المرات ، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عمّ الأرض . ويزعم غالب أهل النظر من المتأخرين أن الطوفان لم يكن عامًا ، ولهم على ذلك شواهد يطول شرحها . غير أنه لا يجوز لشخص مسلم أن ينكر قضية أن الطوفان كان عامًا ، لمجرد حكايات عن أهل الصين ، أو لمجرد احتمال التأويل في آيات الكتاب العزيز . بل على كل من يمتد بالدين ، ألا يفتي شيئاً مما يدل عليه ظاهر الآيات والأحاديث التي صح سندها ، وينصرف عنها إلى التأويل ، إلا بدليل عقليّ يقطع بأن الظاهر غير مراد ، والوصول إلى ذلك في مثل هذه المسألة يحتاج إلى بحث طويل ، وعناء شديد ، وعلم غزير في طبقات الأرض ، وما تحوى عليه ، وذلك يتوقف على علوم شتى ، عقلية وعقلية . ومن هدى برأيه بدون علم يقينيّ ، فهو مجازف ، ولا يسمع له قول ، ولا يسمح له ببيت جهالاته ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

واستظهر بمضمون أن الطوفان كان عامًا ، إذ لم يكن العمران قائمًا إلا بقوم نوح ، فكان عامًا لهم ، وإن كان من جهة خاصًا بهم ، إذ ليس ثمّ غيرهم ، قال :

هبط آدم إلى الأرض ، وهو ليس بأمة إذا مضت عليها قرون ولدت أمتا ، بل هو واحد تمضى عليه السفون ، بل القرون ، وعمّو عشيرته لا يكاد يكون إلا كما يتقلص الظل قليلاً قليلاً . من آدم إلى نوح ثمانية آباء ، فإن كان ثمانية آباء يعطون من الدرية أضغافاً وآلافاً ، حتى يطؤوا وجه الأرض بالأقدام ، وينشروا العمران في تلك الأيام ، فتلك قضية من أعظم ما يذكره التاريخ أعجوبة للعالمين ؟ أما تلك الجبال التي وجدت فوقها عظام الأسماك ، فإن كانت مما وصل إليه الطوفان ، من المكان الخاص الذي سبق به البيان ، فلا برهان . وإن كانت في غير ذلك المكان ، فإن لم يكن وضعها إنسان ، كما وجدها إنسان ، كان نقل الجوارح

والسكواسر لتلك العظام ، إلى تلك الجبال مما يسوغه الإمكان . بهذا وبغيره مما لا يغيب عن الأفهام ، تعلم أن الطوفان خاص عام : خاص بمكان ، عام سائر المكان - والله أعلم ^(١) - .
وقوله تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤٩] (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ)

« تِلْكَ » إشارة إلى قصة نوح عليه السلام « مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا » أى الإيحاء إليك ، والإخبار بها . وفى ذكركم تنبيه على أنه لم يتعلمها؛ إذ لم يخالط غيرهم ، وأنهم مع كثرتهم لم يسمعوها ، فكيف بواحد منهم !؟ « فَاصْبِرْ » أى على تبليغ الرسالة، وأذى قومك ، كما صبر نوح . وتوقع فى العاقبة لك ، ولن كذبك ، نحو ما قبض لنوح ولقومه - كذا فى الكشاف - « إِنَّ الْعَاقِبَةَ » أى فى الدنيا بالنصر والظفر ، وفى الآخرة بالنعيم الأبدى ، « لِلْمُتَّقِينَ » أى عن الشرك والمعاصى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ)

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا » عطف على قوله (نوحاً) . أى : وأرسلنا إلى عاد . و (أخاهم) بمعنى (واحداً) منهم كما يقولون : (يا أخا العرب) ! « قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ »

(١) ترك المؤلف رحمه الله بمد هذا البحث فراغاً قدره ثلاث صفحات وثلاث الصفحة ، مما يدل على أنه كان يريد توسعاً فى دراسته ، وتممقاً فى تحقيقه .

أى وحده ، « مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ » أى باتخاذ الأوثان شركاء ، وجعلها شفعاء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي » إنما خاطب كل رسول به قومه ، إزاحة للتهمة ، وتمحيصاً للنصيحة ، فإنها لا تنجح ما دامت مشوبة بالمطامع . « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أى تفكرون ، إذ تردون نصيحة من لا يسألكم أجراً ، ولا شئ أنفى للتهمة من ذلك ، أو تدبرون الصواب من الخطأ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٢] (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ)

« وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من الوقوف مع الهوى بالشرك « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى من عبادة غيره ، بالتوجه إلى التوحيد « يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا » أى كثير الدرر ، أى الأمطار . منصوب على الحال من (السماء) . ولم يؤث ، مع أنه من مؤنث ، إيمان المراد بالسماء السحاب أو المطر ، فذكر على المعنى ، أو (مفعال) للمبالغة ، يستوى فيه المذكر والمؤنث ، كصبور ، أو الهاء حذف من (مفعال) على طريق النسب - أفاده السمين - « وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ » أى مضمومة إليها أو معها . أى شدة إلى شدتكم بالقوة البدنية ، أو بالمال أو البنين . وإنما استألم إلى الإيمان ، ورغبهم فيه ، بكثرة المطر ، وزيادة القوة ، لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين ، حراساً على التقوى بما ذكر ، لثراء ملهم ،

وترهيب أعدائهم، وقد كانوا مثلًا في القوة، كما قالوا^(١): «مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً» «وَلَا تَقُولُوا»
أى تمرضوا عما أدعوكم إليه «مُجْرِمِينَ» أى مصرّين على إجرامكم وآثامكم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٣] «قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا
نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ»

«قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ» أى بحجة تدل على صحة دعواك، وذلك لقصور فهمهم،
وعمى بصيرتهم عن إدراك البرهان، لمكان النقاشات الطبيعية، وإذا لم يدركوه أنكروه
بالضرورة «وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا» أى عبادتها «عَنْ قَوْلِكَ» حال من ضمير
(تاركى) أى تركا صادرا عن قولك. أو (عن) للتعميل، كهى فى قوله^(٢) «إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ»
أى لأجلها، فتتعلق (بتاركى). والأول أبلغ، لدلالته على كونه علة فاعلية، ولا يفيد
(الباء واللام). وهذا كقولهم فى الأعراف^(٣) «أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا».

«وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ» أى مصدقين. إفناط له من الإجابة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] «إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ، قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا
أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ»

[٥٥] «مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ»

«إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ» أى مستك «بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ» أى بجنون، لسببك

(١) [٤١ / فصلت / ١٥] . (٢) [٩ / التوبة / ١١٤] .

(٣) [٧ / الأعراف / ٧٠] .

إياها ، وصدك عنها ، وعداوتك لها ، مكافأة لك منها على سوء فعلك ، بسوء الجزاء ، ومن ثم تشكلم بما تشكلم .

قال الزمخشري : دلت أجوبتهم المتقدمة على أنهم كانوا جفاة ، غلاظ الأكباد ، لا يبالون بالبهت ، ولا يلتفتون إلى النصح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد . وهذا الأخير دالٌّ على جهل مفرط ، وبله متناه ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنقص وتنقص .

« قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ » أي على « وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ » قال الزمخشري : من أعظم الآيات أن يواجه ، بهذا الكلام ، رجل واحد أمة عطاشاً إلى إرافة دمه يرمونه عن قوس واحدة ، وذلك لثقتة بربه ، وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخالبتهم ، ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه (١) : (ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ) أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله ، وشهادة العباد ، فيقول الرجل : الله شهيد على أني لا أفعل كذا ، ويقول لقومه : كونوا شهداء على أني لا أفعله . ولما جاهر بالبراءة مما يعبدون ، أمرهم بالاحتشاد والتعاون في إيصال السكيد إليه ، عليه السلام ، دون إمهال بقواه : « فَسَكِيدُونِي جَمِيعاً » أي أنتم وآلهتكم « ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ » يعني إن صح ما لو حتم به ، من كون آلهتكم لها تأثير في ضرر ، فكونوا معها فيه ، وباشروه أمجل ما تفعلون دون إمهال .

قال أبو السمود : فالفاء لتفريع الأمر على زعمهم في قدرة آلهتهم على ما قالوا ، وعلى البراءة كليهما ، وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان رجلاً مفرداً بين الجم الغفير ، والجمع الكثير ، من عتاة عاد ، الغلاظ الشداد . وقد خاطبهم بما خاطبهم ، وحقهم وآلهتهم ، وهيجهم على مباشرة مبادئ المضادة والمضارة ، وحثهم على التصدي لأسباب المعازة والمعارة ، فلم يقدرُوا على مباشرة شيء مما كلفوه وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بيناً . كيف لا ، وقد التجأ إلى ركن منيع رفيع ، حيث قال :

(١) [١٠ / يونس / ٧١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٦] (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ،
إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

« إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ » أى فلا تصلون إلى بسوء ، لتوكل على الله
« مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » أى مالك لها ، قادر عليها ، يصر فيها كيف شاء .
قال القاشانى : بين وجوب التوكل على الله ، وكونه حصناً حصيناً ، أولاً بأن ربوبيته
شاملة لكل أحد ، ومن ربّ يدبر أمر المربوب ويحفظه ، فلا حاجة له إلى كلاءة غيره
وحفظه . ثم بأن كل ذى نفس تحت قهره وسلطانه ، أسير فى يد تصرفه ومملكته وقدرته ،
عاجز عن الفعل والقوة والتأثير فى غيره ، لا حراك به بنفسه ، كالميت فلا حاجة إلى الاحتراز
منه - انتهى - .

والناصية : مثبت الشعر من مقدم الرأس ، وتطلق على الشعر النابت فيها أيضاً ، تسمية
للحال باسم المحل . يقال : نصوت الرجل : أخذت بناصيته .
وفى العناية : وقولهم : ناصيته بيده ، أى منقاد له . والأخذ بالناصية عبارة عن القدرة
والتسلط ، مجازاً أو كناية .

وقوله تعالى : « إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » تلميل لما يدل عليه التوكل ، من عدم
قدرتهم على إضراره . أى هو على طريق الحق والعدل فى ملكه ، فلا يسلطكم على ،
إذ لا يضيع عنده معتصم به ، ولا يفوته ظالم .

قال فى (العناية) : هو تمثيل واستمارة ، لأنه مطلع على أمور العباد ، مجاز لهم بالثواب
والعقاب ، كاف لمن اعتصم ، كمن وقف على الجادة فحفظها ، ودفع ضرر السابلة بها .

وهو كقوله (١) : (إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ) والافتقار على إضافة الرب إلى نفسه ، إما بطريق الاكتفاء ، لظهور المراد ، وإما للإشارة إلى أن اللطف والإعانة مخصوصة به ، دونهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ، إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ)

« فَإِنْ تَوَلَّوْا » أى تمولوا ، بحذف إحدى التاءين « فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ » أى فقامت الحجة عليكم « وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ » استئناف بالوعيد لهم . أى : فيهلكهم ، ويحییء بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم « وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا » أى بتوليكم ، لاستحالة ما عليه ، بل تضرون أنفسكم . أو بذهابكم وهلاككم لا ينقص من ملكه شىء . « إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ » أى رقيب عليه ، مهيمن ، فلا تخفى عليه أعمالكم ، فيجازيكم بحسبها . أو حافظ حاكم مستول على كل شىء ، فلا يمكن أن يضره شىء .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٨] (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُم مِّنْ

عَذَابِ غَلِيظٍ)

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا ، أو أمرنا بالعذاب ، وهو الريح العقيم « نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَا هُم مِّنْ عَذَابِ غَلِيظٍ » . وقد بين في غير آية ، منها قوله (٢) : (وَأَمَّا عَادُ فَاهْتَكَمُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ) .

(١) [٨٩ / الفجر / ١٤] . (٢) [٦٩ / الحاقة / ٧٦] .

فإن قلت : ما معنى تكرير التنجية ؟ فالجواب : لا تكرير فيه ، لأن الأول إخبار بأن نجاتهم برحمة الله وفضله ، والثاني بيان ما نجوا منه ، وأنه أمر شديد عظيم لا سهل ، فهو للامتنان عليهم ، وتجريز لهم على الإيمان . أو الأول إنجاء من عذاب الدنيا ، والثاني من عذاب الآخرة ، تعريضاً بأن المهلكين كما عذبوا في الدنيا بالسموم ، فهم معذبون في الآخرة بالمعذاب الغليظ . ويرجح الأول بملاءمته لمقتضى المقام .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرًا كُلًّا

جَبَّارًا عَنِيدًا)

« وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ » تأنيث اسم الإشارة ، باعتبار القبيلة . وصيغة البعيد لتحقيرهم ، أو لتزليلهم منزلة البعيد ، لعدمهم . وإذا كانت الإشارة لمصارعهم ، فهي للبعيد المحسوس . وتعدى الجحود بالباء حملا له على الكفر ، لأنه المراد . أو بتضمينه معناه ، كما أن (كفر) جرى مجرى (جحد) . فتعدى بنفسه في قوله (١) : (كَفَرُوا رَبَّهُمْ) . وقيل : (كفر) ك (شكر) يتعدى بنفسه وبال حرف . وظاهر كلام القاموس : أن (جحد) كذلك .

والمعنى : كفروا بالله ، وأنكروا آياته التي في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته . وجمع (الرسل) ، مع أنه لم يرسل إليهم غير هود عليه الصلاة والسلام ، تفضيلاً لحالهم ، وإظهاراً لكامل كفرهم وعنادهم ، ببيان أن عصيانهم له ، عليه الصلاة والسلام ، عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين ، لاتفاق كلمتهم على التوحيد (٢) (لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) - كذا في (العناية) وأبي السمود - .

(١) [١١ / هود / ٦٠] . (٢) [٢ / البقرة / ١٣٦] .

« وَاتَّبِعُوا » أى اطاعوا فى الشرك « أَمَرَ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » لا يستدل بدليل ، ولا يقبله من غيره . يريد رؤساءهم وكبراءهم ، ودعاتهم إلى تكذيب الرسل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ،

أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ)

« وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى جمعت تابعة لهم فى الدارين ، أى لازمة .

قال أبو السمود : والتعبير عن ذلك بالتبعية للمبالغة ، فكأنها لا تفارقهم ، وإن ذهبوا كل مذهب ، بل تدور معهم ، حيثما داروا . ولوقوعه فى حجة اتباعهم رؤساءهم . يعنى : أنهم لما اتبعوهم أتبعوا ذلك جزاءً وفاقاً .

« أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ » إذ عبدوا غيره - وتقدم تعدية (كفر) - « أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ » دعا عليهم بالهلاك أو باللعنة ، وفيه من الإشعار بالسخط عليهم ، والمقت ، ما لا يخفى فظاعته . وتكرير حرف التنبية ، وإعادة (عاد) للمبالغة فى تهويل حالهم ، والحث على الاعتبار بنبئهم . و(قوم هود) عطف بيان لـ (عاد) فائدته النسبة بذكره عليه السلام ، الذى إنما استحقوا الهلاك بسببه ، كأنه قيل : عاد قوم هود الذى كذبه . وتناسب الآى بذلك أيضاً ، فإن قبلها^(١) (وَاتَّبِعُوا أَمَرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) . وقبل ذلك (حفيظ) و(غليظ) ، وغير ذلك مما هو على وزن (فمیل) (المناسب لـ (فمول) فى القوافى - والله أعلم - .

(١) [١١ / هود / ٥٩] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦١] (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ)

« وَإِلَىٰ ثَمُودَ » عطف على ما سبق بيانه من قوله : (وَإِلَىٰ عَادٍ) أى وأرسلنا إلى ثمود، وهى قبيلة من العرب « أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ » أى كونكم منها وحده ، فإنه خلق آدم ، ومواد النطف التى خلق نسله منها، من التراب « وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا » أى عمركم فيها، أو جعلكم عمارها، أى جعلكم قادرين على عمارتها ، كقوله تعالى فى الأعراف (١) : (وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا) ، « فَاسْتَغْفِرُوهُ » أى من الشرك ، « ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ » بالتوحيد « إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ » أى قريب الرحمة لمن استغفره، مجيب دعاءه بالقبول.

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا ، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا

يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُّرِيبٍ)

« قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا » أى كانت تلوح فيك مخايل الخير، وأمارات الرشد ، فكنا نرجوك لنتفجع بك ، وتكون مشاوراً فى الأمور ، ومسترشداً فى التقدير ، فلما نظقت بهذا القول انقطع رجاؤنا عنك ، وعلمنا أن لا خير فيك . كذا فى (الكشاف).

(١) [٧ / الأعراف / ٧٤] .

« أَتَنهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَمْبُدُ ءَابَاؤُنَا » أى من الأوثان « وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ » أى من التوحيد « مُرِيبٍ » أى موقع في الريبة، وهى قلق النفس ، وانتفاء الطمأنينة :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْئَةٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ ، فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ)
 « قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ » أى أخبرونى « إِن كُنتُمْ عَلَىٰ بَيْئَةٍ » أى حجة ظاهرة ، وبرهان وبصيرة « مِّن رَّبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً » أى هداية ونبوة ، « فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ » أى ينجينى من عذابه ، « إِن عَصَيْتُهُ » أى بالمجاراة معكم فى أهوائكم ، « فَمَا تَزِيدُونِي » أى باستتباعكم إياى ، « غَيْرَ تَخْسِيرٍ » أى غير أن تجملونى خاسراً بتعريضى لسخط الله . أو فما تزيدونى ، بما تقولون إلا تبصرة بكم بأن أنسبكم إلى الخسران .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)
 « وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ » الإضافة للتشريف ، والإعلام بمايتنها لما يجانسها من حيث الخلقة وأخلق « لَكُمْ ءَايَةٌ » أى معجزة دالة على صدق نبوتى « فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ » من فرط غضب الله عليكم ، لاجترائكم على آياته النسوبة إليه .

ثم أخبر بأنهم لم يسمعوا قوله ، ولم يطيعوا ، بعد رؤية هذه الآية ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٥] (فَمَقَرُّوْهَا فَقَالَ تَمَتَّمُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَّكَذُوبٍ) « فَمَقَرُّوْهَا » أى قتلوها « فَقَالَ تَمَتَّمُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَّكَذُوبٍ » أى مردود .

قال في (الإكليل) : استدلل به في إمهال الخصم ونحوه ثلاثة ؛ وفيه دليل على أن ل (لثلاثة) نظراً في الشرع ، ولهذا شرعت في (الخيار) ونحوه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٦] (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

« فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا » أى عذابنا ، وهو الصيحة ، كما سيبين « نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ » أى بسبب رحمة عظيمة « مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ » وهو هلاكهم بالصيحة « إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ » أى القادر على كل شيء ، والغالب عليه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٧] (وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

« وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ » أى من جهة السماء ، فرجفوا لها رجفة الهلاك « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » أى هامدين موتى لا يتحركون . ولا يخفى ما فيه من الدلالة على شدة الأخذ وسرعته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦٨] (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا إِنَّ تَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدًا لِتَمُودَ) « كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا » أى كأنهم لم يقيموا « فِيهَا » أى في مساكنهم « أَلَا إِنَّ تَمُودَ

كَفَرُوا رَبَّهُمْ » أى فأهلكتهم . « أَلَا بُدًّا لِمُودَ » أى هلاكاً ولعنة ، لبعدهم عن صراطه .
وقد قدمنا الكلام على تفصيل نبئهم فى الأعراف^(١) بما يفتى عن إعادته هنا ، فليراجع .
ثم أشار تعالى إلى نبالوط وهلاك قومه ، وهو النبأ الرابع من أبناء هذه السورة بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] (وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا ، قَالَ سَلَامٌ ، فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ)

« وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا » أى الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط « إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى » أى بولدٍ وولده . ثم بين أنهم قدموا على التبشير ما يفيد سروراً ، ليكون التبشير سروراً فوق سرور ، بقوله تعالى : « قَالُوا سَلَامًا » أى سلمنا عليك سلاماً ، « قَالَ سَلَامٌ » أى عليكم سلام ، أو سلام عليكم . رفعه ، إجابة بأحسن من تحيتهم ، لأن الرفع أدل على الثبوت من النصب .

ثم أشار إلى إحسان ضيافتهم بقوله : « فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » أى مشوى ، أو سمين يقطر ودّكه ، لقوله^(٢) : (بِعِجْلٍ سَمِينٍ) .

وفى « ما » ثلاثة أوجه : أظهرها أنها نافية ، وفاعل (لبث) إما ضمير (إبراهيم) ، و (أَنْ جَاءَ) مقدر بحرف جر متعلق به ، أى ما أبطأ فى ، أو بأن أو عن (أن جاء) . وإما (أن جاء) أى فما أبطأ ، ولا تأخر مجيئه بعجل . وثانى الأوجه أنها مصدرية . وثالثها أنها بمعنى (الذى) . وهى فىهما مبتدأ ، و (أن جاء) خبره على حذف مضاف . أى : فلبثته ، أو الذى لبثه قدر مجيئه .

(١) انظر تفسير الآية ٧٣ بالصفحة رقم ٢٧٨٢ (الجزء السابع) .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٢٦] .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٧٠] (فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطِ)

« فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ » أى لا يمدون إليه أيديهم « نَكِرَهُمْ » أى أنكرهم ، « وَأَوْجَسَ » أى أحس « مِنْهُمْ خِيفَةً » لظنه أنهم بشر أرادوا به مكروهاً . والضيف إذا همم بفتك لا يأكل من الطعام ، فى عادتهم . « قَالُوا » أى له لما علموا منه الخوف بإخباره لهم ، كما فى آية (١) (قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِئُونَ * قَالُوا لَا تَوَجَّلْ) كما قيل هنا « لَا تَخَفْ » أى إنا لا نأكل لأننا ملائكة ، ولم نزل بالمذاب عليكم « إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطِ » أى لإهلاكم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧١] (وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاَهَا بِاسْحَاقَ وَمِنْ وَّرَاءِ اسْحَاقَ يَعْقُوبَ)

« وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ » أى سروراً بزوال الخيفة ، أو بهلاك أهل الخبائث ، « فَبَشَّرْنَاَهَا بِاسْحَاقَ وَمِنْ وَّرَاءِ اسْحَاقَ يَعْقُوبَ » أى يولد له . والاسمان يحتمل وقوعهما فى البشارة ، أو أنها حكيا بمد أن ولداً وُسْمِيًا بذلك . وفى توجيه البشارة إليها ههنا ، مع ورود البشارة إلى إبراهيم فى آية أخرى ، كآية (٢) (فَبَشَّرْنَاَهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ) (وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ) (٣) إيدان بمشاركتها لإبراهيم فى ذلك حين ورودها ، وإشارة إلى أن ذكر أحدهما فيه اكتفاء عن الآخر ، والمقام أمسّ بذكره وأبلغ . أو للتوصل إلى سوق نبتها فى ذلك ، وخرق العادة فيه ، كما لوح به تعجبها فى قوله تعالى :

(١) [١٥ / الحجر / ٥٢ و٥٣] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٠١] .

(٣) [٥١ / الزاريات / ٢٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٢] (قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ)

« قَالَتْ يَا وَيْلَتَا » أى يا عجبي . وأصله للدعاء بالويل ونحوه ، فى جزع التفجع لشدة مكروه يدهم النفس ، ثم استعمل فى التعجب . وألفه بدل من ياء التكلم ، ولذلك أمالها أبو عمرو وعاصم فى رواية ، وبها قرأ الحسن (ياويلتى) . وقيل : هى ألف الندبة ، ويوقف عليها بهاء السكت .

« أَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ » أى امرأة مسنة - والأفصح ترك الهاء معها - وسمع من بعض العرب (عجوزة) - حكاه يونس - « وَهَذَا بَعْلِي » أى زوجى إبراهيم « شَيْخًا إِنَّ هَذَا » أى التولد من هرمين « لَشَيْءٌ عَجِيبٌ » أى غريب ، لم تجر به العادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)

« قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ » أى أتستبمدين من شأنه وقدرته خلق الولد من الهرمين؟ قال الزمخشري : وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ، لأنها كانت فى بيت الآيات ، ومهبط المعجزات ، والأمور الخارقة للمادات ، فكان عليها أن تتوقر ، ولا يزددها ما يزدهى سائر النساء الناشئات فى غير بيت النبوة ، وأن تسبح الله وتمجده ، مكان التعجب . وإلى ذلك أشارت الملائكة، صلوات الله عليهم، فى قولهم : « رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ » أرادوا أن هذه وأمثالها مما يكرمكم به رب العزة ، ويخصكم بالإنعام به يا أهل بيت النبوة ، فليست بمكان عجب . والكلام مستأنف ، علل به إنكار التعجب ، كأنه قيل : (إياك والتعجب) فإن أمثال هذه الرحمة والبركة متسكرة من الله عليكم - انتهى .

فالجملة خبرية ، وجوز كونها دعائية . و (أهل البيت) نصب على النداء أو التخصيص ، لأن أهل البيت مدح لهم ، إذ المراد أهل بيت خليل الرحمن .
 « إِنَّهُ حَمِيدٌ » أى مستحق للحماد ، لما وهبه من جلائل النعم « مَجِيدٌ » أى كريم واسع الإحسان ، فلا يبعد أن يعطى الولد بعد الكبر . وهو تذييل بديع لبيان أن مقتضى حالها أن تحمد مستوجب الحمد المحسن إليها بما أحسن ، وتمجده؛ إذ شرفها بما شرف .

القوله فى تاويل قوله تعالى :

[٧٤] (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ)

« فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ » أى خيفة إرادة المكروه منهم بعرفانهم « وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ » أى بدل الروع « يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ » أى فى هلاكهم ، استعطافاً لدفعه .

روى أنه قال : أتهلك البار مع الأئيم ، أتهلكها وفيهم خمسون باراً؟ حاشا لك !
 فقيل له : إن وجد فيهم خمسون باراً فنصفح عن الجميع لأجلهم !

فقال : أو أربعون ؟

فقيل : أو أربعون !

وهكذا إلى أن قال : أو عشرة ، فقيل له : لانهلكها من أجل العشرة ، إلا أنه ليس فيها عشرة أربار ، بل جميعهم منهمك فى الفاحشة . فقال : إن فيها لوطاً ! فقيل : نحن أعلم بمن فيها لننجينته .

و (يُجَادِلُنَا) جواب (لَمَّا) جىء به مضارعاً على حكاية الحال . أو أن (لَمَّا) ك (لَوْ)

تقلب المضارع ماضياً ، كما أن (إِنْ) تقلب الماضى مستقبلاً . أو الجواب محذوف ، والمذكور دليله أو متعلق به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ)

« إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ » أى غير عجول على الانتقام من المسىء « أَوَّاهٌ » كثير التأسف « مُنِيبٌ » أى راجع إلى الله فى كل ما يحبه ويرضاه . والمقصود بتمعداد صفاته الجميلة المذكورة ، بيان الحامل على المجادلة ، وهو رقة القلب وفرط الترحم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٦] (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ لَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)

« يَا إِبْرَاهِيمُ » أى قيل له : يا إبراهيم « أَعْرِضْ عَنْ هَذَا » أى الجدل « إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ » أى حكمه بهلاكهم « وَإِنَّهُمْ لَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ » أى بجدال ، ولا بدعاء ، ولا بغيرها .

فوائد :

قال بعض المفسرين : لهذه الآيات نمرات : وهى أن حصول الولد المخصص بالفضل نعمة ، وهلاك العاصى نعمة ، لأن البشرى قد فسرت بولادة إسحاق ، كما فى آخر الآية ، وهى (١) : (فَبَشِّرْ نَاهَا بِإِسْحَاقَ . . .) الخ وفسرت بهلاك قوم لوط .

ومنها : استحباب نزول المبشر على المبشر ، لأن الملائكة أرسلهم الله بذلك .

ومنها : أنه يستحب للمبشر تلقى ذلك بالطاعة ، شكراً لله تعالى على ما بئس به .

وحكى الأصم أنهم جاؤوه فى أرض يعمل فيها ، فلما فرغ غرز مسحاته ، وصلى ركعتين .

ومنها : أن السلام مشروع ، وأنه ينبغى أن يكون الرد أفضل ، لقول إبراهيم : (سَلَامٌ)

بالرفع ، كما تقدم سره انتهى .

(١) [١١ / هود / ٧١] .

ومنها : مشروعية الضيافة ، والمبادرة إليها ، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها .
ومنها : استحباب خدمة الضيف ، ولو للمرأة ، لقول مجاهد : وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ - أى فى خدمة أضياف إبراهيم . قال فى (الوجيز) : وكنّ لا يحتجبن ، كمادة العرب ونازلة البوادرى ، أو كانت عجوزا ، وخدمة الضيفان من مكارم الأخلاق .
ومنها : جواز مراجعة المرأة الأجنب فى القول ، وأن صوتها ليس بمورة . كذا فى (الإكليل) .

ومنها : أن امرأة الرجل من أهل بيته ، فيكون أزواجه عليه الصلاة والسلام من أهل بيته . ويأتى ذلك أيضاً فى آية^(١) : (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا » أى بعد منصرفها من عند إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، وكان مقبلا فى (بلوط تمر) التى بد (جبرون) ، المدينة المعروفة اليوم بد (الخليل) ؛ « سِيءَ بِهِمْ » أى ساءه مجيئهم ، لأنهم أتوه على صورة مُرِدٍ ، حسان الوجوه ، تخاف أن يقصدهم قومه ، لظنه أنهم بشر « وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا » يقال : ضايق بالأمر ذرعه وذرعه ، وضايق به ذرعاً ، أى ضعفت طاقته ، ولم يجد من المكروه فيه مخلصاً .

قال الجوهري : أصل الذرع بسط اليد ، فكأنك تريد : مدت يدك إليه فلم تنله .
 وقيل : وجه التمثيل أن القصير الذراع لا ينال ما يناله الطويل الذراع ، ولا يطبق طاقته ، فَضْرِبَ مثلاً الذى سقطت قوته ، دون بلوغ الأمر والاقتدار عليه .

وقال الأزهري : الذرع يوضع موضع الطاقة ، والأصل فيه ، أن البعير يذرع بيديه

(١) [١١ / هود / ٨١] و [١٥ / الحجر / ٦٥] .

في سيره ذرعاً ، على قدر سمة خطوه . فإذا حمل عليه أكثر من طوقه ، طاق به ذرعاً عن ذلك وضعف ، ومدّ عنقه . فجمل ضيق الذرع عبارة عن ضيق الوسع والطاقة .
و (ذرعاً) تمييز ، لأنه خرج مفسراً محوّلاً . والأصل : ضاق ذرعى به . وشاهد الذراع قوله (١) :

وَإِنْ بَاتَ وَحْشًا لَيْلَةً لَمْ يَضِقْ بِهَا ذِرَاعًا وَلَمْ يُضْبِحْ لَهَا وَهُوَ خَاشِعٌ
« وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ » أى شديد . وكيف لا يشتد عليه ، وقد ألمّ المحذور ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ، قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ، أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)

« وَجَاءَهُ قَوْمُهُ مُهْرَعُونَ إِلَيْهِ » أى يسرعون كأنما يدفنون دفماً . وقرئ مبنيًا للفاعل .
« وَمِنْ قَبْلُ » أى قبل مجيئهم « كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ » أى الفواحش وبكثرتها ،

(١) فائله هو حميد بن ثور الهلالي . من قصيدة مطلعها :

تَرَى رَبَّةَ الْبَهْمِ الْفِرَارَ عَشِيَّةً إِذَا مَا عَدَا فِي بَهْمِهَا وَهُوَ ضَائِعٌ

الْبَهْمُ جمع بهمة وهى أولاد الضأن والمعز والبقر . يريد : هى ترى الحرب إذارات الذئب .
وعدا ، يعنى الذئب . والضائع ، الجائع .

والبيت الشاهد ، هكذا رواه اللسان . وفى الديوان ص ١٠٤ . . وهو خاضع . وحشا : جائعا ، لا طعام له . وقوله (ذراعا) هو مثل قولهم : ضاق بالأمر ذرعا وذرعا ، إذا ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصا . أى مدّ يده إليه فلم ينله .

فرونوا عليها ، وقلّ عندهم استقباحها ، فلذلك جاءوا مسرعين مجاهرين ، لا يكفهم حياء . فالجمله معترضة لتأكيد ما قبلها . وقيل : إنها بيان لوجه ضيق صدره . أى : لما عرف لوط عادتهم فى عمل الفواحش قبل ذلك « قَالَ » أى لوط « يَا قَوْمِ هُوَ لَاءَ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ » أراد أن يبق أضيافه بيناته ، وذلك غاية الكرم ، أى فتزوجهن . أو كان ذلك مبالغه فى تواضعه لهم ، وإظهاراً لشده امتعاضه ، مما أوردوا عليه ، طمعاً فى أن يستحموا منه ، ويرقوا له إذا سمعوا ذلك ، فيتركوا ضيوفه - هذا ما يخص ما فى (الكشاف) - ومن تابعه - وظاهر أنه ، عليه السلام ، كان واثقاً بأن قومه لا يؤثرونهن بوجه ما ، مهما أطرى وأطنب ، وشوق ورغب ، فكان إظهاره وقاية ضيفانه ، وفداءهم بهن ، مع وثوقه المذكور وحزمه - مبالغه فى الاعتناء بحمايتهم ، وقياماً بالواجب فى مثل هذا الخطب الفادح الفاضح ، الذى يدوم عاره وسناره ، من الدفاع عنهم بأقصى ما يمكن ، لكيلا ينسب إلى قصور . وليعلم أن لا غاية وراء هذا لمن لا ركن له من عشيرة أو قبيلة ، فذلك غاية الغايات فى حيطتهم ووقايتهم .

وفى قوله : (هن أطهر لكم) من التشويق ، على مرأى من ضيفانه ومسمع ، ما فيه من زيادة الكرم والإكرام ، ورعاية التمام . وبالجملة فهو ترغيب بمحال الوقوع باطناً ، وإعذارٌ لنزلائه ظاهراً - والله أعلم - وفى هذا إرشاد إلى التطهر بالطرق المسنونة ، وهى النكاح . وإشارة إلى تنهاى وقاحة أولئك بما استأهلوا به أخذهم الآتى .

« فَأَتَقُوا اللَّهَ » أى أن تعصوه بما هو أشد من الزنى خبيثاً .

« وَلَا تَخْزُونِ فِي ضَيْفِي » أى ولا تهينونى وتفضحونى فى شأنهم ، فإنه إذا خزى

ضيف الرجل أو جاره ، فقد خزى الرجل ، وذلك من عرافة الكرم ، وأصالة المروءة . و(تخزون)

محزوم بمحذوف النون ، والياء محذوفة اكتفاء بالكسرة . وقرئ بإثباتها على الأصل .

« أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ » أى فيرعى عن القبيح ، ويهتدى إلى الصواب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)

« قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ » أى حاجة ، إذ لا نريدن . وفى تصدير كلامهم باللام المؤذنة بأن ما بعدها جواب القسم ، أى : والله لقد علمت - إشارة إلى ما ذكرناه من أنه كان واثقاً ورازماً بمدم رغبتهم فيهن . وأيد ذلك قولهم : « وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ » استشهاداً بعلمه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] (قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ)

« قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ » أى بدمعكم قوة ، بالبدن أو الولد « أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ » أى عشيرة كثيرة ، لأنه كان غربياً عن قومه ، شبهها بركن الجبل فى الشدة والمنعة .
أى : لعلمت بكم ما فعلت ، وصنعت ما صنعت .

تفنيه :

قال الإمام ابن حزم رحمه الله فى (الملل) :

ظن بعض الفرق أن ما جاء فى الحديث الصحيح من قوله ﷺ (١) : (رحم الله لوطاً ، لقد كان يأوى إلى ركن شديد) إنكاراً على لوط عليه السلام . ولا تخالف بين القولين ، بل كلاهما حق ، لأن لوطاً عليه السلام إنما أراد منعة عاجلة يمنع بها قومه مما هم عليه من الفواحش ، من قرابة أو عشيرة أو أتباع مؤمنين . وما جهل قط لوط عليه السلام أنه يأوى من ربه تعالى إلى أمنع قوة ، وأشد ركن . ولا جناح على لوط عليه السلام فى طلب قوة من

(١) أخرجه البخارى فى : ٦٠ - كتاب الأنبياء ، ١٥ - باب : ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ... الخ ونصه . عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال « يغفر الله للوط ، إن كان ليأوى إلى ركن شديد » .

الناس، فقد قال تعالى (١): (وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)، فهذا الذى طلب لوط عليه السلام . وقد طلب رسول الله ﷺ من الأنصار والمهاجرين منعه حتى يبلغ كلام ربه تعالى ، فكيف ينكر على لوط أمراً هو فعله عليه السلام . تالله! ما أنكر ذلك رسول الله ﷺ، وإنما أخبر أن لوطاً كان يأوى إلى ركن شديد ، يعنى من نصر الله له بالملائكة . ولم يكن لوط علم بذلك . ومن اعتقد أن لوطاً كان يعتقد أنه ليس له من الله ركن شديد، فقد كفر، إذ نسب إلى نبي من الأنبياء هذا الكفر. وهذا أيضاً ظن سخيف، إذ من الممتنع أن يظن ربّ أراه المعجزات ، وهو دائماً يدعو إليه ، هذا الظن . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٨١] (قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ ، إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ ، إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ ، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)

« قَالُوا يَا لَوُطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ » أى إلى إضرارك بإضرارنا « فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ » أى بطائفة من آخره . أى ببقية سواد منه عند السحر ، وهو وقت استغراقهم فى النوم ، فلا يمكنهم التعرض له ولا لأهله . وقرئ « فَأَسْرِ » بالقطع والوصل .

« وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ » أى لا ينظر إلى ورائه ، لئلا يلحقه أثر ما نزل عليهم « إِلَّا أَمْرًا تَكُ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ » أى من العذاب ، فإنها لما سمعت وجبة العذاب التفت فهلكت .

قال فى (الإكمال) : فيه أن المرأة والأولاد من الأهل .

(١) [٢ / البقرة / ٢٥١] .

« إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ » أى موعدهم بالهلاك الصبح ، والجملة كالتمايل للأمر بالإسراء ، أو جواب لاستعمال لوط واستبطائه المذاب ، أو ذكرت ليعمجل في السير ، فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع في الإسراء ، للتباعد عن موقع المذاب .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مِّنْضُودٍ)

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا « أى عذابنا » جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا « أى فقلبت تلك المدن ونبتها بسكانها جميعاً . « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ » أى طين متحجر ، كقوله (١) : (حِجَارَةً مِّن طِينٍ) ، « مِّنْضُودٍ » أى يرسل بعضه في إثر بعض متتابعاً . قال المهامبي : اتصل بعضه ببعض ، ليرجوا رجم الزناة ، بما يناسب قسوتهم وربيتهم الذى اتصل بقلوبهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ)

« مُسَوِّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ » مملّمة عنده « وَمَا هِيَ » أى تلك الحجارة « مِنَ الظَّالِمِينَ » أى بالشرك وغيره « بَبَعِيدٍ » ، فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها ، وملابسون بها . وفيه وعيد شديد لأهل الظلم كافة . وقيل : الضمير للقرى ، أى هى قريبة من ظالمى مكة ، يبرون بها فى أسفارهم إلى الشام ، وقد صار موضع تلك المدن بجمراء أجاج لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بـ (البحر الميت) ، لأن مياهه لا تغذى شيئاً من جنس الحيوان ، وبـ (بحر الزفت) أيضاً ، لأنه ينبعث من عمق مقرّه إلى سطحه ، فيطفو فوقه ، وبـ (بحيرة لوط) والأرض التى تليها قاحلة ، لا تنبت شيئاً .

(١) [٥١ / الذاربات / ٣٣] .

قال أبو السمود : ونذ كبير (بميد) على تأويل (الحجارة) بالحجر ، أو إجرائه على موصوف مذكر ، أى بشيء بميد ، أولآنه على زنة المصدر كـ (الزفير) و (الصميل) . والمصادر ، يستوى فى الوصف بها ، المذكر والمؤنث .
وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ، إِنَّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ » أى وأرسلنا إلى مدين ، عطف على ما قبله . و (مدين) بلد بين الحجاز والشام ، على مقربة من (عمان) ويطلق على أهلها ، وهم قوم من العرب كانوا يعمرونها . « أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ » أى لتبخسوا الناس أشياءهم بالباطل . « إِنَّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ » أى نعمة وثروة فى رزقكم ومعيشتكم ، وعافية وتمتع فى وجودكم . فملا تتعرضوا لزال ذلك عنكم بما تاتونه مما تنهون عنه ، كما قال سبحانه : « وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ » أى مهلك ، أو لا يشد منه أحد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْمُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)
« وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ » أى العدل .

قال الزمخشري : فإن قلت : النهى عن النقصان أمر بالإيفاء ، فما فائدة قوله : (أوفوا)؟

قلت : نهوا أولاً عن عين التبييح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأن في التصريح بالتبييح نهيًا على المنهي ، وتمييراً له . ثم ورد الأمر بالإيفاء ، الذي هو حسن في العقول ، مصرحاً بلفظه لزيادة ترغيب فيه ، وبمث عليه . وجيء به مقيداً (بالقسط) أي ليكون الإيفاء على وجه العدل والتسوية ، من غير زيادة ولا نقصان ، أمراً بما هو الواجب . لأن ما جاوز العدل فضل ، وأمر مندوب إليه . وفيه توقيف على أن الموفى ، عليه أن ينوى بالوفاء القسط ، لأن الإيفاء وجهٌ حسنه أنه قسط وعدل . فهذه ثلاث فوائد . انتهى .

« وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ » أي لا تنقصوهم حقوقهم بطريق من الطرق ، كالكيل والوزن وغيرهما ، فهو تعميم بعد تخصيص ، لأنه أعم من أن يكون في المقدار وغيره . والبخس : الهضم والنقص . ويقال للمكس : البخس . قال زهير (١) :

أفي كل أسواقِ العراقِ إنَاوَةٌ وفي كلِّ ما باع امرؤٌ بخسٌ درهمٌ
ألا تستحى منا ملوكٌ وتتقى محارمنا . لا تتقى الدمَ بالدمِ

وروى (مكس درهم) . يريد زهير : أخذ الخراج ، وما هو اليوم في الأسواق من رسوم وظلم . وكان قوم شعيب يأخذون ، من كل شيء يباع ، شيئاً . كما تفعل السامسة ،

(١) هذان البيتان ليسا في (ديوان زهير) واستشهد في (لسان العرب) في مادة (ات و) بالبيت الأول ونسبه إلى حنّى بن جابر التغلبي .

وأخطأ صاحب (اللسان) في اسم الشاعر . وإنما هو : جابر بن حنّى التغلبي ، صاحب الفضيلة ٤٢ . والبيتان منها هما السابع عشر والثاسع عشر .

وروايتهما : وفي كلِّ مكسٌ درهمٌ .
لا يبوءُ الدمُ بالدمِ

(لا يبوءُ) من قولهم : باء فلان بفلان إذا كان كفاء له ، أن يقتل به .

وقد صحح الأستاذ المصنف اسمه كذلك في (رغبة الأمل) بالجزء الخامس ص ٢٢٣ وكان البرد في (الكامل) قد رواه خطأ ، فقال : عمرو بن حبيّ التغلبي .

أو كانوا يمكسون الناس ، أو كانوا ينقصون من أئمان ما يشترتون من الأشياء ، فهموا عن ذلك - كذا في (الكشاف) و (شرحه) .

قال القاشاني : لما رأى شعيب ، عليه السلام ، ضلالتهم بالشرك ، واحتجابهم عن الحق بالجبث ، وتهاكهم على كسب الحطام بأنواع الرذائل ، وتماديهم في الحرص على جمع المال بأسوأ الخصال - نهامهم عن ذلك ، وقال : إني أراكم بخير في استعدادكم من إمكان حصول كمال وقبول هداية ، وإني أخاف عليكم إحاطة خطيئاتكم ، لاحتجابكم عن الحق ، ووقوفكم مع الغير ، وصرف أفكاركم بالكفاية إلى طلب المعاش ، وإعراضكم عن المعاد ، وقصور هممكم على إحراز الفاسدات الفانيات ، عن تحصيل الباقيات الصالحات ، فلازموا التوحيد والعدالة ، واعتزلوا عن الشرك ، والظلم ، الذى هو جماع الرذائل ، وأم الفوائل .

« وَلَا تَعْمَلُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » أى لا تعملوا فيها بالفساد . يعم أيضاً تفتيق الحقوق وغيره ، كالسرقة والشرك ، والدعاء إليه ، والصدّة عن الإيمان ونحوها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَحْفِظٍ)

« بَقِيَّةُ اللَّهِ » أى ثوابه الباقى على وفاء الكيل والوزن ، أو ما أبقاه عليكم بعد التنزه عن الحرام ، أو ما تفضل عليكم من الربح بعد وفائهما « خَيْرٌ لَّكُمْ » أى فى دينكم ودنياكم « إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » فإن المؤمن ببارك له ، إذا تنزه عن الحرام . أو مصدقين بما أقول . وقال القاشاني : أى إن كنتم مصدقين ببقاء شيء ، فإيبق لَكُمْ عند الله من الكمالات والسامدات الأخروية ، خير لكم من تلك المكاسب الفانية التى تشقون بها ، وتشقون على أنفسكم فى كسبها وتحصيلها ، ثم تتركونها بالموت ، ولا يبقى منها معكم شيء إلا وبالالتبعات والعذاب اللازم ، لما فى نفوسكم من رواسخ الهيئات .

« وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِمَحْفِظٍ » أى رقيب لأحفظكم عن القبائح وأكفكم عنها بسيطرة .

وإنما أنا مبلغ نذير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ، إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ)

« قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَوَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » أى من الأصنام ، أجابوا به أمرهم بالتوحيد ، على الاستهزاء والتهمك بصلواته ، والإشعار بأن مثله لا يدعو إليه داع عقلى ، وإنما دعاك إليه خطرات ووساوس من جنس ما تواظب عليه . وكان شعيب كثير الصلاة ، فلذلك جمعوا وخصوا الصلاة بالذكر . وقرئ : (أصلاتك) بالإفراد - قاله القاضى - .

« أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ » من نقص ونحوه « إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ » أى الموصوف بالحلم والرشد فى قومك يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك ، وما شهرت به ، كما قال قوم صالح عليه السلام^(١) : (قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) . أو قالوا ذلك تهكمًا به ، والمراد أنه على الضد من ذلك . قيل : وهذا أرجح ، لأنه أنسب بهكمهم قبله والأدق هو الأول لمماثلته لما حوَّط به صالح ، وتعقيبه بمثل ما عَقَّب به ، وهو قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا

حَسَنًا ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ ، إِنْ أُرِيدُ إِلَّا

الِإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي » أى أخبرونى إن كنت على

برهان يقينى مما أنانى ربي من العلم والنبوة « وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا » أى مالا حلالات

(١) [١١ / هود / ٦٢] .

مكتسباً بلا بنحس وتظفيف ، أو حكمة ونبوة ، وكلاً وتكميلاً ، بالاستقامة على التوحيد ، هل يصح لى أن أخون الوحي ، وأترك النهى عن الشرك والظلم ، والإصلاح بالتركية والتحلية . وهو اعتذار عما أنكروه عليه من تغيير المألوف ، والنهى عن دين الآباء . وحذف جواب (أرايم) لما دل عليه فى مثله ، كما مرّ فى نبأ فوح وصالح عليهما السلام ، وعلى خصوصيته هنا من قوله : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ » أى وما أريد أن آتى ما أنهاكم عنه ، لأستبدّ به دونكم ، فلو كان صواباً لآثرته ، ولم أعرض عنه ، فضلاً عن أن أنهى عنه - أفاده القاضى - .

وفى (التاج) : يقال : خالفه إلى الشيء : عصاه إليه ، أو قصده بعد ما نهاه عنه ، وهو من ذلك .

قال القاشانى : أى ما أقصد إلى جرّ المنافع الدنيوية الفانية ، بارتكاب الظلم الذى أنهاكم عنه .

« إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ » أى إصلاح نفوسكم بالتركية ، والنهيئة لقبول الحكمة ، ما دمت مستطعماً متمكناً منه . « وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ » أى وما كونى موفقاً للإصلاح إلا بعمونة الله وتأيبده . « عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ » أى أعتمد « وَإِلَيْهِ أُنِيبُ » أى أرجع فى السراء والضراء .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (وَيَأْقَوْمٍ لَا يُجْزِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ، وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بِيَعِيدٍ)

« وَيَأْقَوْمٍ لَا يُجْزِمَنَّكُمْ شِقَاقِي » أى لا يكسبنكم عداوتى « أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ » من الفرق والريح والصيحة « وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بِيَعِيدٍ »

قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بَبَعِيدٍ « فإن منازلهم قريبة منكم، وقد علمتم ما نزل بهم من قلب الأرض، وإمطار الحجارة . وذلك لأن مخالفة الرسل تقتضى أحد هذه الأمور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ)

« وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ » أى من عبادة الأصنام « ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ » أى بالتوحيد ، أو بالرجوع عن البخس والتطيف « إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ » أى للمستغفرين التائبين « وَدُودٌ » أى مبالغ فى المحبة لهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩١] (قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْ

رَهْطَكَ لَرَجَمْنَاكَ ، وَمَا أَرْحَمْنَا بِعَزِيزٍ)

« قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفَقَهُ » أى ما نفهم « كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ » كالتوحيد ، وحرمة البخس . يعنون أنهم لا يقبلونه ، أو قالوا ذلك استهانة به ، كما يقول الرجل لمن لا يعبأ بمحدثه : ما أدرى ما تقول ! أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً لا يفهمهم كثير منه . (والكثير) مراد به السكل . أو قالوه فراراً من المكابرة .

قال أبو السعود : الفقه معرفة غرض المتكلم من كلامه . أى : ما نفهم مرادك . وإنما قالوه بعد ما سمعوا منه دلائل الحق البين على أحسن وجه وأبلغه ، وضاعت عليهم الحيل ، فلم يجدوا إلى محاورته سبيلاً ، سوى الصدود عن منهاج الحق ، والسلوك إلى سبيل الشقاء ، كما هو ديدن المفحّم المحجوج ، يقابل البيّنات بالسب والإبراق والإرعاد . فجعلوا كلامه المشتمل على فنون الحكم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، من قبيل ما لا يفهم معناه ، ولا يدرك فحواه ، وأدجوا فى ضمن ذلك أن فى تضاعيفه ما يستوجب أقصى ما يكون من

المؤاخذه والعقاب . ولعل ذلك ما فيه من التحذير من عواقب الأمم السالفة ، ولذلك قالوا :
 « وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا » أى لا قوة لك ، فتمتنع منا إن أردنا بك سوءًا « وَلَوْلَا
 رَهْطُكَ » أى قومك وأنهم على ملتنا « لَرَجَمْنَاكَ » أى قتلناك برى الأحجار، أو شرفقتة
 « وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ » أى لا تمز علينا ولا تسكرم ، حتى نسكرمك ونمنعك من الرجم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٢] (قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا ،
 إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

« قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ » أى من أمره ووحيه ودينه
 « وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِيًّا » أى نسيتموه وجعلتموه كالشئ المنبوذ وراء الظهر ،
 لا يعبأ به . و (الظهري) منسوب إلى الظهر ، والكسر من تغييرات النسب ، كما قالوا :
 (إمسى) بالكسر فى النسبة إلى (أمس) . و (ذهري) ، بالضم ، فى النسبة إلى (الدهر)
 « إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ » أى عالم ، لا يخفى عليه ، فيجازيكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ
 عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ، وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ)

« وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى غاية تمسكنكم واستيطاعتكم ، أو على جهتمكم
 وحالكم التى أنتم عليها ، من كفركم وعداوتكم « إِنِّي عَامِلٌ » أى على مكائتي التى كنت
 عليها من الثبات على الإسلام والمصابة .

« فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ
 رَقِيبٌ » أى منتظر لهلاككم . وفى زيادة (معكم) إظهار منه عليه السلام لكمال الوثوق بأمره .

قال الزمخشري : فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعتها في (سَوْفَ تَعْلَمُونَ) ؟ قلت : إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعتها وصل خفيّ تقديريّ بالاستثناف الذى هو جواب لسؤال مقدر، كأنهم قالوا: فما يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا ، وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعملون ! فوصل تارة بالفاء ، وتارة بالاستثناف ، للتفنين في البلاغة ، كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستثناف . اهـ - أى للإشعار بأنه مما يسأل عنه ، ويعتنى به ، ولذا كان أبلغ في التحويل .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ)

« وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا » إنما ذكره بالواو ، كما في قصة عاد ، إذ لم يسبقه ذكر وعد يجرى مجرى السبب له بخلاف قصتي صالح ولوط ، فإنه ذكر بعد الوعد ، وذلك قوله ^(١) (وَعَدُّ غَيْرُ مَسْكُودٍ) ، وقوله ^(٢) (إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصَّيْحُ) فلذلك جاء بفاء السببية . أفاده القاضى .

« وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ » أى بالعذاب « فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ » أى ميتين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ)

« كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا » أى يقيموا « فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ » شبههم بهم ، لأن عذابهم كان أيضاً بالصيحة ، وكانوا قريباً منهم في المنزل ، نظراءهم في الكفر ، وقطع الطريق ، وكانوا أعراباً مثلهم .

(١) [١١ / هود / ٦٥] . (٢) [١١ / هود / ٨١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ)

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا » أى التسع « وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ » وهو المصا . وكانت أبهر معجزاته ، فلذا خصت . أو هو الآيات ، والعطف للإشارة إلى الجمع بين كونها آيات وسلطاناً واضحاً على رسالته .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ)

« إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ » أى بالكفر بموسى ، أو طريقة فرعون الجائرة .

قال الزمخشري : هذا تجهيل لتبعيه ، حيث شايعوه على أمره ، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل . وذلك أنه ادعى الإلهية ، وهو بشر مثلهم ، وجاهر بالمسء والظلم والنشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد ، فاتبعوه وسلوا له دعواه ، وتتابعوا على طاعته .

« وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ » أى بمرشد ، أو ذى رشد ، وإنما هو غىّ وضلال .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (يَاقَوْمِ قَوْمِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَأُورِدْهُمْ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ)

« يَاقَوْمِ قَوْمِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ » أى يتقدمهم إلى النار ، كما كان يقدمهم فى الدنيا إلى الضلال « فَأُورِدْهُمْ النَّارَ » أى يوردهم . وإشار لفظ الماضى للدلالة على تحققه والقطع به . وشبه فرعون بالفارط الذى يتقدم الواردة إلى الماء ، وأتباعه بالواردة ، والنار بالماء الذى يردونه . ثم قيل : « وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ » أى بئس الورد الذى يردونه النار ، لأن الورد - وهو النصب من الماء - إنما يراد لتسكين الظمأ ، وتبريد السكبد ، والنار على الضد من ذلك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ)

« وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ » أى الدنيا « لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ » أى يلعنون فى الدنيا والآخرة ،
فهى تابعة لهم ، أين كانوا . فد (يوم) معطوف على محل (فى) هذه ، لا ابتداء كلام .
« بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ » أى بئس العطاء المعطى ، وهى اللعنة فى الدارين .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ نَقِصُهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ)

« ذَٰلِكَ » إشارة إلى ما قص من أنباء الأمم « مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَىٰ » أى الميالك « نَقِصُهُ
عَلَيْكَ » أى بالوحي « مِنْهَا قَائِمٌ » أى باق ينظر إليها ، قد باد أهلها « وَحَصِيدٌ » أى
ومنها عاقى الأثر كالزراع المحصود .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي

يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ)

« وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ » بإهلاكنا إياهم « وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ » أى بتعريضها لما أوجبه
من الشرك وعبادة الأوثان والظلم « فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ » أى إهلاك ونخسير .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنْ أَخَذَهُ الِيمُّ

شَدِيدٌ)

« وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ الِيمُّ شَدِيدٌ » فيه

إشمار بظلمهم وإعلام بسنته تعالى في أخذ الظالمين ، التي لا تتبدل ، وإنذار كل ظالم ظم نفسه أو غيره ، من سوء العاقبة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ)

« إِنَّ فِي ذَلِكَ » أى فيما قص في هذه السورة ، أوفى أخذ الظالمين « لآية » أى لعمرة « لِمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ » فيعتبر بها عن موجباته « ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ » أى يشهده الأولون والآخرون ، وأهل السماء والأرض .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ)

« وَمَا نُؤَخِّرُهُ » أى ذلك اليوم « إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ » أى لمدة محددة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

« يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ » أى بإذن الله تعالى ، كقوله تعالى (١) : (لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) « فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

« فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَ فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ » الزفير إخراج النفس مع صوت ممدود، والشهيق : رده . كنى بهما عن الغم والكرب ، لأنه يملو معه النفس غالباً . أو شبهه صراخهم بأصوات الحمير .

(١) [٧٨ / النبأ / ٣٨] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، إِنَّ رَبَّكَ
فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ)

[١٠٨] (وَأَمَّا الَّذِينَ سُمِعُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ، عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ)

« خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا
يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُمِعُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا
شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوزٍ » أى غير مقطوع ، ولكنه ممتد إلى غير نهاية .

وفي التوقيت بـ (السموات والأرض) وجهان :

أحدهما : أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع ، كقول العرب : (ما أقام تميم) ،
و (ما لاح كوكب) و (ما طاب البحر) ونحوها : لا تعلق قرارهم في الدارين بدوام هذه
السموات والأرض ، فإن النصوص دالة على تأييد قرارهم ، وانقطاع دوامهما .

وثانيهما : أن يراد سموات الآخرة وأرضها، إذ لا بد لأهلها من مظل ومقل. قال تعالى (١):
(يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ) وقوله (٢): « وَأَوْرَثْنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ
مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » .

فإن قلت : ما معنى الاستثناء بالمشيئة، وقد ثبت خلود أهل الدارين فيهما من غير استثناء؟
فالجواب : ما قدمناه في قوله تعالى (٣): (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ
اللَّهُ) يعني أن الاستثناء بالمشيئة قد استعمل في أسلوب القرآن، للدلالة على الثبوت والاستمرار.

(١) [١٤ / إبراهيم / ٤٨] . (٢) [٣٩ / الزمر / ٧٤] .

(٣) [٧ / الأعراف / ١٨٨] .

والنكتة في الاستثناء بيان أن هذه الأمور الثابتة الداعة إنما كانت كذلك بمشيئة الله تعالى لا بطبيعتها في نفسها ، ولو شاء تعالى أن يغيرها لفعل .
وقد أشار لهذا ابن كثير بقوله : يعني أن دوامهم ليس أمراً واجباً بذاته ، بل موكل إلى مشيئته تعالى .

وابن عطية بقوله : هذا على طريق الاستثناء الذي ندب الشارع إلى استعماله في كل كلام كقوله : (لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)^(١) فليس يحتاج أن يوصف بمتصل ولا منقطع .

وللمفسرين هنا وجوه كثيرة ، وما ذكرناه أحقها وأبدعها .
ولما قص تعالى قصص عبدة الأوثان وذكروا ما أحله بهم من نقمة ، وما أعد لهم من عذابه قال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءِ ، مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمٌ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ)

« فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَؤُلَاءِ » أي في شك من عبادتهم ، في أنها ضلال مؤد إلى مثل ما حلَّ بمن قبلهم . وفيه تسليمة له صلوات الله عليه ، وعدة بالانتقام ، ووعيد لهم . « مَا يَعْْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ » أي فهم سواء في الاشرار ، وقد بلغك ما نزل بأبائهم ، فسيحلَّ بهم مثله . وهو استئناف معلل للنهي عن المرية . « وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمٌ نَصِيبُهُمْ » أي من العذاب ، كما وفي آباؤهم « غَيْرَ مَنْقُوصٍ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٠] (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ

رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)

« وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ » أى التوراة « فَاخْتَلَفَ فِيهِ » أى آمن به قوم ، وكفر به آخرون ، كما اختلف هؤلاء فى القرآن . « وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ » يعنى ما أشير إليه فى قوله تعالى (١) : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ) « لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ » أى باستئصالهم . « وَإِنَّهُمْ » أى هؤلاء ، وهم كفار مكة « لَفِي شَكٍّ مِنْهُ » أى القرآن « مُرِيبٍ » أى موقع للناس فى الريبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١١] (وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ، إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

« وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيَؤْفِقِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ » أى فلا يخفى عليه شئ منه ، وسيجزئهم عليه . والتنونين فى (كَلَّا) عوض عن المضاف ، أى وإن كل المختلفين فيه .

تفنيه :

فى هذه الآية قراءات : قرئ (إن) و (لما) مخففتين ومشددتين ، وبتخفيف (إن) وتشديد (لما) ، وبمعكسها . وهذه الأربع قراءات كلها متواترة .

فأما الأولى : فيها إعمال (إن) المخففة ، وهى لغة ثابتة عن العرب ، واللام فى (لما) لأمر الابتداء ، داخله فى خبر (إن) . و (ما) إما موصولة بمعنى (الذين) واقمة على من يعقل ، واللام فى (ليؤفقيهم) جواب قسم مضمرة . أى : وإن كَلَّا للذين ، والله ! ليؤفقيهم . وإما نكرة موصوفة ، والجملة القسمية وجوابها صفة (ما) . أى : وإن كَلَّا لخلق ، أو

(١) [٨ / الأنفال / ٣٣] .

لفريق ، والله ! ليوفينهم . وقيل : اللام الأولى موطئة للقسم ، ولما اجتمع اللامان ، واتفقا في اللفظ ، فصل بينهما بـ (ما) ، فهي زائدة لإصلاح اللفظ . وقيل : اللام المذكورة هي الفارقة بين الخففة والنافية . وقيل : إنها جواب القسم كررت تأكيذاً .

وأما الثانية : وهي تشديدهما ، (إن) على حالها ، وما بعدها منصوب على أنه اسمها ، و (لَمَّا) بمعنى (إلا) أو جازمة بمعنى (لم) ومجزؤها محذوف . أى : لما يمهلوا ، أو لما يوفوا أعمالهم إلى الآن ، وسيوفونها .

وأما الثالثة : وهي تخفيف (إن) وتشديد (لَمَّا) ، (إن) مخففة عاملة كما تقدم ، و (لَمَّا) بمعنى (إلا) أو جازمة أيضاً . أو (إن) نافية بمنزلة (ما) و (لَمَّا) بمعنى (إلا) و (كَلَّا) منصوب بمضمر ، أى : وما أرى كُلاً إلا .

وأما الرابعة : وهي تشديد (إن) وتخفيف (لَمَّا) فواضحة . فـ (إن) هي المشددة عملت عملها .

والكلام في (اللام) و (ما) مثل ما تقدم أولاً من الوجوه الأربعة في (اللام) والثلاثة في (ما) .

وثبتت قراءات آخر فلتراجع في (السمين) وغيره .
وقوله تعالى :

♦ القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

« فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ » أى في القرآن ، و (الكاف) للتشبيه ، أو بمعنى (على) « وَمَنْ تَابَ مَعَكَ » أى من الشرك ، وهم المؤمنون . « وَلَا تَطْغَوْا » أى تجاوزوا حدود الله « إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » أى فيجازيكم به . قال ابن كثير : يأمر تعالى رسوله والمؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة ، وذلك من أكبر العون على النصر ، وينهى عن الطغيان ، وهو البغي ، فإنه مصرعة ، ولو كان على مشرك .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ)

« وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى أنفسهم بالشرك والمعاصى . أى : لا تسكنوا إليهم . ولا تطمئنوا إليهم ، لما يفضى الركون من الرضا بشركهم وتقويتهم ، وتوهين جانب الحق . « فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ » أى أنصار ينعون عذابه عنكم بركونكم إليهم . « ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ » أى لا ينعون مما يراد بكم . والقصد تبعيد المؤمنين عن موادة المشركين المحادين لله ورسوله ، والثقة بهم ، وهم أعظم عقبة في الصدد عن سبيل الله ، لأن ذلك ينافى الإيمان .

قيل : الآية أبلغ ما يتصور في النهى عن الظلم ، والتهديد عليه ، لأن هذا الوعيد الشديد إذا كان فيمن يركن إلى أهله ، فكيف بمن يغمس في حماه ؟

تنبیه :

قال بعض المفسرين البياضين : الآية صريحة بأن الركون إلى الظلمة محرّم وكبيرة ، لأنه تعالى توعد بالنار . ولكن ما هو الركون الذى أراده تعالى ؟ قلنا : فى ذلك وجوه ؟

فروى عن ابن عباس والأصمّ أن المعنى : لا تميلوا إلى الظلمة فى شيء من دينكم .

وقيل : رضوا بأعمالهم - عن أبى العالية - .

وقيل : تلحقوا بالمشركين - عن قتادة - .

وقيل : تداهنوا الظلمة - عن السدىّ وابن زيد - .

وقيل : الدخول معهم فى ظلمهم ، وإظهار الرضا بفعلهم ، وإظهار موالاتهم . فأما إذا دخل عليهم لدفع شرهم ، فيجوز ، لأنه تعالى أمر بالرفق فى مخالطة الكفار ، والظلمة أولى .

قال الزمخشريّ : النهى يتناول الأنحطاط فى هواهم ، والانتطاع إليهم ، ومصاحبتهم ومجالستهم وزيارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزّيّ بزيتهم ، ومد العين

إلى زهرتهم ، وذكركم بما فيه تعظيم لهم . وتأمل قوله : (وَلَا تَرَوْا كُنُوفًا) فإن الركون هو الميل اليسير . وقوله : (إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا) أى إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل : إلى الظالمين .

وحكى أن الموفق صلى خلف الإمام ، فقرأ بهذه الآية ، فغشى عليه ، فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم ، فكيف بالظالم ! انتهى .

قال البيهقي : قد وسع العلماء في ذلك وشدّدوا ، والحالات تختلف ، والأعمال بالنيات ، والتفصيل أولى ، فإن كانت المخالطة لدفع منكر ، أو استمانة عليه ، أو رجاء تركهم الظلم ، أو استكفاء ضرورهم فلا حرج في ذلك ، وربما وجب . وإن كان لإيئاسهم وإقرارهم فلا . انتهى - .

وأقول : كل هذا مبنى على عموم الآية ، وأما إن كانت في مشركى مكة ، اعتماداً على سباق الآية وسياقها ، فالمراد منها ما ذكرناه أولاً - والله أعلم - .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)

« وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ » أى غدوة وعشية « وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ » أى وساعات منه ، وهى ساعاته القريبة من آخر النهار . من (أزلفه) إذا قربه ، وازدلف إليه . وصلاة الغدوة : الفجر . وصلاة العشية : الظهر والعصر ، لأزما بعد الزوال عشية ، وصلاة الزلف المغرب والعشاء - كذا في الكشف - .

والآية كقوله تعالى (٢) : (أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ)

(١) [١٧ / الإسراء ٧٨] .

في جمعهما للصلوات الخمس جمعا بالغا غاية اللطف في بلاغة الإيجاز . وانتصاب (طرفي النهار) على الظرف لإضافته إليه . و (زلفا) قرأها العامة بضم ففتح ، جمع زلفة ، كظلمة وظلم . وقرئ بضمهما ، إما على أنه جمع زلفة أيضا ، ولما سكن ضمت عينه إتباعاً لفائه ؛ أو على أنه اسم مفرد كعنق . أو جمع زليف بمعنى زلفة كزغيف وزغف .

وقرئ بإسكان اللام ، إما بالتخفيف ، فيكون فيها ما تقدم ، أو على أن السكون على أصله ، فهو كبسرة وبسر ، من غير إتباع .

وقرئ (زلفي) كحلبى ، بمعنى قريبة ، أو على إبدال الألف من التنوين ، إجراء للوصل مجرى الوقف . ونصبه إما على الظرفية ، بمعطفه على (طرفي النهار) لأن المراد به الساعات ، أو على عطفه على (الصلاة) ، فهو مفعول به .

والزلفة عند ثعلب ، أول ساعات الليل .

وقال الأخفش : مطلق ساعات الليل ، وأصل معناه القرب . يقال ازدلف أى اقترب .

و (من الليل) صفة زلفا - كذا في العناية - .

« إِنَّ الْحَسَنَاتِ » أى التى من جملتها ، بل عمدتها ، ما أمرت به من الصلوات « يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » أى التى قلما يخلو منها البشر ، أى يكفرنها . « ذَلِكَ » أى إقامة الصلوات فى الأوقات المذكورة ، « ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ » أى ذكرى له تعالى ، وإحضار للقلب معه ، وتصفية من كدورات اللهو والنسيان لمظلمته .

وقد روى عن ابن مسعود رضى الله عنه ؛ أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ! إنى عاجلت امرأة فى أقصى المدينة ، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها ، وأنا هذا . فاقض فى ما شئت ! فقال له عمر رضى الله عنه : لقد سترك الله تعالى لو سترت على نفسك . قال فلم يرد النبي ﷺ شيئا . فقام الرجل ، فانطلق فأتبعه النبي ﷺ رجلا فدعاه ، وتلا عليه هذه الآية (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) الخ .

فقال رجل من القوم : يا رسول الله ! هذا له خاصة ؟ قال : بل للناس كافة - أخرجه البخارى^(١) وغيره .

وفي رواية عن أبي أمامة^(٢) قال له ﷺ : آتمت الوضوء وصليت معنا ؟ قال : نعم . قال : فإنك من خطيئتك كما ولدتك أمك ، فلا تَعُدْ . وقرأ الآية .

وفي رواية : فنزلت الآية ، والمراد بالنزول شمولها ، بنزولها المتقدم ، لا وقع ، لأنها كانت سبباً في النزول - كما بيناه غير مرة - .

وفي الصحيح^(٣) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : رأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات ، هل يبقى من دونه شيء ؟ قالوا : لا . قال : فذلك مثل الصلوات الخمس ، يمحو الله بها الخطايا . ورواه البخارى أيضاً عن جابر ، ورؤى نحوه عن عثمان وسلمان .

والإمام أحمد^(٥) عن معاذ ؛ أن رسول الله ﷺ قال : أتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

(١) أورده البخارى ، موجزاً ، في : ٦٥ - كتاب التفسير ، ١١ - سورة هود ، ٦ - باب وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِّنَ اللَّيْلِ ، حديث رقم ٣٤٢ .

أما النص الذي ساقه المؤلف ، فهو ما أخرجه مسلم في صحيحه في ٤٩٠ - كتاب التوبة ، ٧ - باب قوله تعالى : إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، حديث رقم ٤٢ (طبعنا) .

(٢) أخرجه مسلم في : ٤٩ - كتاب التوبة ، حديث رقم ٤٥ (طبعنا) .

(٣) أخرجه البخارى في ٩ - كتاب مواقيت الصلاة ، ٦ - باب الصلوات الخمس

كفارة ، حديث ٣٤٤ . (٤) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٢٢٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبي) .

وله عن أبي ذرٍّ^(١) مرفوعاً (إذا عملت سيئة فأتبمها حسنة تمحها) قلت : يا رسول الله أمن الحسنات لا إله إلا الله؟ قال (هي أفضل الحسنات) أى : فالحسنات مثل الصلاة والذكر والصدقة والاستغفار ، ونحو ذلك من أعمال البرّ .

لطيفة :

أشار الفاشانيّ عليه الرحمة ، إلى سر الصلوات الخمس في أوقاتها بما يجدر الوقوف عليه ، فقال :

لما كانت الحواس الخمس شواغل تشغل القلب بما يردُّ عليه من الهيئات الجسمانية ، وتجذبه عن الحضرة الرحمانية ، وتحجبه عن النور والحضور ، بالإعراض عن جناب القدس ، والتوجه إلى معدن الرجز ، وتبدله الوحشة بالأنس ، والسكدورة بالصفاء - فرضت خمس صلوات ، يتفرغ فيها العبد للحضور ، ويسد أبواب الحواس ، لئلا يرد على القلب شاغل يشغله ، ويفتح باب القلب إلى الله تعالى بالتوجه والنية ، لوصول مدد النور ، ويجمع همه عن التفرق ، ويستأنس بربه عن التوحش ، مع اتحاد الوجهة ، وحصول الجمعية ، فتكون تلك الصلوات خمسة أبواب مفتوحة للقلب ، على جناب الرب ، يدخل عليه بها النور بإزاء تلك الخمسة المفتوحة إلى جانب الغرور ، وداراً للعين الغرور ، التي تدخل بها الظلمة لبُذْهِبِ النور الوارد آثار ظلماتها ، ويكسح غبار كدوراتها . وهذا معنى قوله : (إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ) :

وقد ورد في الحديث^(٢) (إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر) وأمر بإقامتها طرفي النهار ، لينسحب حكمها ببقاء الجمعية ، واستيلاء الهيئة النورية ، في أوله إلى سائر الأوقات ، فعسى أن يكون من الذين هم على صلاتهم دائمون ، لدوام ذلك الحضور ،

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة رقم ١٥٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبيّ) .

(٢) أخرجه مسلم في ٢٠ - كتاب الطهارة ، حديث رقم ١٦ (طبعتنا) عن أبي هريرة :

وبقاء ذلك النور، وبكسح ويزيل في آخره ما حصل في سائر الأوقات من التفرقة والكدورة. ولما كانت القوى الطبيعية المدبرة لأمر الغذاء ، سلطانها في الليل ، وهي تجذب النفس إلى تدبير البدن بالنوم عن عالمها الروحاني ، وتجزئها عن شأنها الخاص بها ، الذي هو مطالعة عالم القدس بشغلها باستعمال آلات الغذاء ، لهارة الجسد ، فتسلبها اللطافة ، وتكدرها بالمشاوة - احتيج إلى تلطيفها وتصفيتها باليقظة ، وتنويرها بالصلاة ، فقال : (وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ) . انتهى . وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)

« وَاصْبِرْ » أى على مشاق ما أمرت به من التبليغ ، أو على ما يقولون ، أو على الصلاة كقوله^(١) : (وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا) ولا مانع من شموله للكل .

« فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ » أى في أعمالهم فيوفيهم أجورهم من غير بخس . قال أبو السمود : وإنما عبر عن ذلك بنفي الإضاعة ، لبيان كمال نزاهته تعالى عن ذلك ، بتصويره بصورة ما يتمتع صدوره عنه سبحانه ، وإبراز الإثابة في معرض الأمور الواجبة ، مع الإيماء إلى أن الصبر على ما ذكر من باب الإحسان . انتهى .

وأشار الشهاب في (الغاية) هنا إلى لطيفة من البلاغة القرآنية ، وهو أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي ﷺ ، وإن كانت عامة في المعنى ، وفي النهيات جمعت للأمة .

وقوله تعالى :

(١) [٢٠ / طه / ١٣٢] .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)

« فَلَوْلَا كَانَ » أى فهلا وجد « مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ » أى بعمل الشرور والمنكرات ، فإنه لو كان منهم ناهون لم يؤخذ الباقون « إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ » استثناء منقطع . أى لكن قليلاً ممن أنجينا من القرون نهوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهي .

لطيفة :

(البقية) إما بمعنى الباقية ، والتأنيث لمعنى الخصلة أو القطعة . أو بقية من الرأى والمقل . أو بمعنى الفضيلة ، والتاء للنقل إلى الاسمية كالديحة . وأطلق على الفضل (بقية) استمارة من البقية التى يصطفها المرء لنفسه ، ويدخرها مما ينفقه ، فإنه يفعل ذلك بأنفسها . ولذا قيل : (فى الزوايا خبايا ، وفى الرجال بقايا) ، و (فلان من بقية القوم) أى من خيارهم . وجوز كون (البقية) مصدرأ بمعنى (البقوى) ، كالتقية بمعنى التقوى . أى فهلا كان منهم ذوو إبقاء على أنفسهم ، وصيانة لها من سطخه تعالى وعقابه .

« وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ » أى ما صاروا منعمين فيه من الشهوات ، حتى فجأهم العذاب ، واتباعه كناية عن الاهتمام به ، وترك غيره ، كما هو دأب التابع للشيء . و (الَّذِينَ ظَلَمُوا) أعم من المباشرين بأنفسهم للفساد ، ومن تاركى النهى عنه . وقصره الزمخشري على الثانى ، لأنهم المقصود بالنهى قبله ، حيث قال : أراد بـ (الذين ظلموا) تاركى النهى عن المنكرات ، أى لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعقدوا همهم بالشهوات ، واتبعوا ما عرفوا فيه التعمم والتترف ، من حب الرئاسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الهنىء ، ورفضوا ما وراء ذلك ، ونبذوه وراء ظهورهم .

«وَكَاُنُوا مُجْرِمِينَ» أى باتباعهم المذكور ، أو كافرين . قال القاضى : كأنه أراد أن يبين ما كان السبب لاستئصال الأمم السالفة ، وهو فشو الظلم فيهم ، واتباعهم للهوى ، وترك النهى عن المنكرات مع الكفر ، وقد أشير لذلك بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ)

« وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ » أى بأمرهم بالمعروف ، ونهيهم عن المنكر . و (بظلم) الباء فيه إما للملابسة ، وهو حال من الفاعل ، أى استحاله فى الحكمة أن يهلك القرى ظالمها ، وتنكيره للتفخيم ، والإيدان بأن إهلاك المصلحين ظلم عظيم . أو للسببية ، والظلم : الشرك . أى لا يهلك القرى بسبب إشراك أهلها وهم مصلحون ، يتماطون الحق فيما بينهم ولا يضمنون إلى شركهم فساداً آخر ، وذلك لفرط رحمته ، ومسامحته فى حقوقه تعالى . ولذا قيل : (يبقى الملئك مع الشرك ، ولا يبقى مع الظلم) وهذا ، وإن كان صحيحاً ، إلا أن مقام دعوة الرسل إلى التوحيد ، ومحو الشرك أولاً ، ثم إلى الاستقامة فى المعاملات ثانياً - يقضى بحمل (الظلم) هنا على ما هو أعم من الشرك ، وأصناف المعاصى . وحمل الإصلاح على إصلاحه ، والإفلاع عنه بكون بعضهم متصددين للنهى عنه ، وبعضهم متجهين إلى الاتماظ ، غير مصرين على ما هم عليه من الشرك ونحوه - كذا أشار له أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ)

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً » أى مجتمعة على الحق والإيمان والصلاح ، ولكنه لم يشأ ذلك « وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ » أى فى الحق ، منهم المؤمن به ، ومنهم الكافر به .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

«إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ» أى لكنّ ناساً رحمهم بهدایتهم إلى التوحيد ، وتوفيقهم للكمال ، فاتفقوا في المذهب والمقصد ، ووافقوا في السيرة والطريقة ، قبلتهم الحق ، ودينهم التوحيد والحبّة .

وقوله تعالى : « وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ » في المشار إليه أقوال . أظهرها أنه للاختلاف الدال عليه (مختلفين) . فالضمير حينئذ للناس ، أى لثمرّة الاختلاف ، من كون فريق في الجنّة ، وفريق في السعير ، خلقهم . واللام العاقبة والصيرورة ، لأن حكمة خلقهم ليس هذا ، لقوله تعالى (١) : (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) ولأنه لو خلقهم له ، لم يعذبهم عليه . أو الإشارة له وللرحمة المفهومة من (رحم) لتأويلها ؛ (أن والفعل) أو كونها بمعنى الخير . وتسكون الإشارة لائنين ، كما في قوله (٢) (عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ) . والمراد لاختلاف الجميع ورحمة بعضهم ، خلقهم . وهذا معزوّ إلى ابن عباس رضي الله عنهما . وإن كان الضمير (من) فالإشارة للرحمة بالتأويل السابق - كذا في العناية - .

وأشار القاشانيّ إلى بقاء اللام على معناها ، وهو التعليل بوجه آخر ، حيث قال : وللاختلاف خلقهم ليستعمل كل منهم لشأن وعمل ، ويختار بطبعه أمراً وصنعة ، ويستتب بهم نظام العالم ، ويستقيم أمر المعاش ، فهم محامل لأمر الله ، حمل عليهم حمول الأسباب والأرزاق ، وما يتعيش به الناس ، ورتب بهم قوام الحياة الدنيا ، كما أن الفئة المرحومة مظاهر لكماله ، أظهر الله بهم صفاته وأفعاله ، وجعلهم مستودع حكمه ومعارفه وأسراره .

(١) [٥١ / الذاريات / ٥٦] . (٢) [٢ / البقرة / ٦٨] .

وقوله تعالى : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ » أى أحكمت وأبرمت وثبتت وهى هذه : « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » والمراد من (الْجِنَّةِ النَّاسِ) عصاتهم ، والتعريف للمهد ، والقريظة عقلية ، لما علم من الشرع أن العذاب مخصوص بهم ، وأن الوعيد ليس إلا لهم ، ولا حاجة إلى تقدير مضاف كما قيل . بـ (أَجْمَعِينَ) حينئذ ظاهر ، وإن لم يحمل على المهدي ، وأبقى على إطلاقه ففائدة التأكيد بيان أن ملء جهنم من الصنفين ، لا من أحدهما فقط ، ويكون الداخولها منهما مسكوتاً عنه ، موكولاً إلى علمه تعالى ، فاندفع ما أورد على ظاهرها من اقتضائه دخول جميع الفريقين جهنم . وبطلانه معلوم بالضرورة . أما على الأول فظاهر ، وأما على الثانى فالمراد بلفظ (أَجْمَعِينَ) تميم الأصناف ، وذلك لا يقتضى دخول جميع الأفراد ، كما إذا قلت : ملأت الجراب من جميع أصناف الطعام ، فإنه لا يقتضى ذلك إلا أن يكون فيه شيء من كل صنف من الأصناف ، لا أن يكون فيه جميع أفراد الطعام . كقولك : امتلأ المجلس من جميع أصناف الناس ، لا يقتضى أن يكون فى المجلس جميع أفراد الناس ، بل يكون من كل فرد صنف ، وهو ظاهر . وعلى هذا تظهر فائدة لفظ (أجمعين) إذ فيه رد على اليهود وغيرهم ، ممن زعم أنه لا يدخل النار - كذا فى العناية . ولما ذكر تعالى فيما تقدم من أنباء الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، ما جرى لهم مع أنبيائهم - أشار هنا إلى سر ذلك وحكمته ، بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ، وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ)

« وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ » أى تقوى به قلبك لتصبر على أذى قومك ، وتتأسى بالرسول من قبلك ، وتعلم أن العاقبة لك ، كما كانت لهم . و (كَلَّا) مفعول (لنقص) و (من أنباء) بيان له . و (ما ثبت) بدل من (كَلَّا) أو خبر محذوف .

« وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ » أى السورة ، أو الأنباء المقتصة « الْحَقُّ » أى القصص الحق الثابت « وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » أى عبرة لهم يحترزون بها عما أهلك الأمم ، وتذكير لما يجب أن يتدينوا به ، ويجملوه طريقهم وسيرتهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ۚ إِنَّا عَامِلُونَ)

« وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » أى بهذا الحق ، ولا يتمظون ولا يتذكرون « أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ » أى حالكم من اتباع الأهواء « إِنَّا عَامِلُونَ » أى على حالنا من اتباع ما جاءنا والاعتاظ والتذكر به .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ)

« وَانْتَظِرُوا » أى العواقب « إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » أى ما وعدنا به من الفتح . وقد أنجز الله وعده . ونصر عبده ، فله الحمد وحده .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ)

وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ » أى فلا تخفى عليه خافية مما يجرى فيهما ، فلا تخفى عليه أعمالكم . « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ » أى أمر العباد فى الآخرة ، فيجازيهم بأعمالهم . وفيه تسليمة للنبي ﷺ ، وتهديد للكفار بالانتقام منهم . « فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ » فإنه كافيك « وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » بالياء التحتمية فى قراء الجمهور ، مناسبة لقوله « لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » وفى قراءة بالتاء الفوقية على تغليب المخاطب ، أى أنت . وم . أى فيجازى كلاً بما يستحقه - والله أعلم - .